المظهرية الجوفاء
وأثرها في دمار الأمّة

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولى للطبعة الجديدة

١٤٢٣ هـ

الكتب والدراسات التي تصدرها الدار
تعبر عن آراء واجتهادات أصحابها

دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع

بيروت - لبنان - ص.ب: ١٤/٦٣٦٦ - تلفون: ٧٠١٩٧٤

سلسلة فقه الدعوة وتزكية النفس (١٤)

المظهرية الجوفاء
وأثرها في دمار الأُمّة

بقلم
حسين بن عودة العوايشة

دار ابن حزم

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدّمة

إنَّ الحمْدَ للهِ، نحمَدُهُ، ونستعينُهُ، ونستغفرُه، ونعوذُ باللهِ من شرورِ أنْفُسِنا، وسيِّئاتِ أعمالِنا، من يَهدِهِ اللهُ فَلا مُضِلَّ لهُ، ومَن يُضْلِل فلا هاديَ لهُ.

وأَشهَدُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ، وحدَه لا شريكَ له، وأَشْهَدُ أنَّ مُحمَّداً عَبدهُ ورَسولهُ.

﴿ يا أيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ حقَّ تُقَاتِهِ ولاَ تَمُوتُنَّ إلا وَأَنتُم مُسْلِمونَ ﴾[1].

﴿ يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذي خَلَقَكُم منْ نفْسٍ وَاحدَةٍ وَخَلَقَ منْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ منْهُمَا رِجَالاً كَثيراً ونساءً واتَّقُوا اللهَ الَّذي تساءَلُونَ بِهِ والأَرْحَامَ إنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُم رَقِيباً ﴾[2].

---

(١) آل عمران: ١٠٢.

(٢) النساء: ١.

﴿ يا أيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَديداً يُصْلِحْ لَكُم أَعْمَالَكُمْ ويَغْفِرْ لَكُم ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً ﴾[1].

أمَّا بعد:

فإنَّ أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدْي هدْي محمّد، وشرّ الأمور مُحدثاتها، وكلَّ مُحدثة بدعة، وكلَّ بدعة ضلالة، وكلَّ ضلالة في النَّار.

وبعد:

فقد تبدَّلت الموازين، واختلفت الأفكار؛ أقبلَ النَّاسُ على المسيء، وأعرضوا عن المُحسن، أنكروا المعروف، وألِفوا المنكر، كُمِّمَت أفواه أهل الذكر والقول والبيان، وتعالت أصوات من ليس لهم في عير العلم ولا نفير الفَهْم، وَوُسِّدَ الأمر إلى غير أهله، وغاب أهل الحلِّ والعقْد عن الأسماع والأنظار، فاستوى عند الناس عدمهم ووجودهم، أصبحت الزينة هي الأمر المروم، وغدت الزخرفة مبلغ الهمّ، وأضحت الشهرة طموح الطامحين، وسمعْتَ في خطبة الجمعة نصْب

(١) الأحزاب: ٧٠ ـ ٧١.

الفاعل، ورفْع المفعول، وضمّ المضاف إليه؛ كل هذا وأنت ترى من حولك ـ أو في المسجد ـ من يجيد و يدرِّس النحو واللغة، ولكنَّه عن مواضع العلم معزول!

فإذا قُمتَ إلى الصلاة؛ سمعت الإخفاء إظهاراً، والإظهار إخفاءً، وسمعْت ما لم تسمع من القُرَّاء؛ يفعل الإمام الخطيب ما يفعل، وهو يعلم أنَّ في المسجد شيوخاً وأساتذة في القراءة والتَّرتيل.

فإذا ما خَرَجْت من المسجد؛ تمنَّيْتَ أن يكون ذلك مناماً.

شغَلَتْنا زخرفة المساجد من عمل أهل المساجد الحقيقي، وأبعَدَتْنا تحلية المصاحف؛ عمَّا فيها من الأوامر والنّواهي.

وهذا يذكّرنا بما صحَّ عن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ موقوفاً، وهو مرفوع إلى النّبيّ ﷺ حُكماً[1]، أنَّه قال:

«كيف أنتُم إذا لبِستكُم فتنة يَهرم فيها الكبير، ويربو فيها الصغير، ويتَّخذها الناسُ سُنَّة، إذا تُرك منها شيءٌ قيل: تُركت السنة؟ قالوا: ومتى ذاك؟ قال: إذا ذَهبت علماؤكم،

(١) قاله شيخنا ـ رحمه الله ـ في «قيام رمضان» (ص٤٠).

وكثرت قرَّاؤكم، وقلَّت فقهاؤُكم، وكثرت أمراؤُكم، وقلّت أُمناؤكم، والتُمست الدُّنيا بعمل الآخرة، وتُفُقِّه لغير الدين»[1].

تحرَّينا النقوش، وأغفلنا النفوس، وبالغْنا في العناية بزينة الجُدران، وأهملْنا الإنسان.

ما الحلُّ؟ ما العمل؟ ما الدواء؟

ليس لنا إلاَّ العودة لكتاب الله تعالى، وسنّة رسوله ﷺ، في ضوء منهاج السلف الصالح.

نتأمَّل كيف كان مسجد النّبيّ ﷺ؟ نتدبَّر بعض مواقف الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ تجاه المظهرية الخاوية، ثمّ نعود إلى أمّتنا، بروح جديدة، وفكر صافٍ، لا تشوبه الشوائب، نجتثُّ جذور المفاهيم الفاسدة، والأفكار المنحرفة.

ولا يفوتني بفضل الله ـ تعالى ـ أن أشكر كلَّ من ساهم بإخراج هذا الكتاب بصورة طيبة، وبكافة الجهود.

---

(١) أخرجه الدارمي والحاكم وغيرهما، وانظر «قيام رمضان» (ص ٤) لشيخنا ـ رحمه الله ـ.

أسأل الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن يتقبَّل مني عملي، وأن يجعله خالصاً لوجهه، وأن ينفع به المسلمين، في مشارق الأرض ومغاربها؛ إنَّه على كل شيء قدير.

المظهرية الجوفاء

* «إذا زخرفتم مساجدكم ...»:

عن أبي الدرداء ـ رضي الله عنه ـ قال: «إذا زخرفْتُم مساجدكم، وحلَّيْتُم مصاحفكم؛ فالدَّمار عليكم»[1].

لمن الخطاب:

كلمة مرعبةً مخيفة ... إنِّها الدّمار ... أو شيء آخر؟

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف»، وانظر تخريجه في «الصحيحة» (١٣٥١). هذا وقد رجّح شيخنا ـ رحمه الله ـ رفْعه ومما اعتمد عليه شيخنا في ذلك: ما رواه ابن أبي شيبة في «المصّنف» وذكر إسناده مرفوعاً، بيْد أنّي لم أره مرفوعاً في النسخة التي بين يديّ، فلا أدري إنْ كان في نسخة مخطوطة الظاهرية قد ورد مرفوعاً وهي النسخة التي اعتمدها شيخنا ـ رحمه الله ـ أو في طبعاتٍ أخرى!

أقول: فإن كان وهو مرفوع؛ فيه إرسال، فكيف إذا لم يكن مرفوعاً وعلى كلّ حال فإنْ ثبتَ رفْعه في «المصنّف» فنفسي تطمئنّ إلى الحُكم عليه بما قال شيخنا ـ رحمه الله ـ وإن لم يثبت رفْعه فيه فإنني أطمئن أنه موقوف، ونعود إلى قول شيخنا ـ رحمه الله ـ: وهو وإن كان موقوفاً فله حُكم الرفع؛ لأنّه لا يُقال من قِبَل الرأي والله ـ تعالى ـ أعلم.

لا، بل الدمـــار، ولمن؟ أللـيـــهـــود؟ أو النصـــارى؟ أو المشركين؟

لا، لـيـس هـؤلاء هـم المـرادين هـنـا، ولـكـنَّ المـرادين هـم المسلمون! وهذا واضح بيّن من خلال النصّ: « . . . عليكم ».

بل إنَّ الخطاب لأهل المساجد والمصاحف!!

واكـرباه! واحـزناه! هل آل الأمـر بأصـحـاب المسـاجـد والمصـاحف أن يكونوا في دمـار؟! أليس في المصـاحف من النور والشـفـاء والرحـمـة مـا يدفعُ عنهم ذلك الدَّمـار؟! أوليست المساجد بيوت الأتقياء؟! أوليس من هذه البيوت، قد كان الإشعاع والنصر والسؤدد والمجْد؟!

فأين العلَّة؟

المسألة هيِّنة سهلة، هيَّا بنا نتأمل كلمتين خفيفتين على اللسان، ثقيلتين في الدلالة والبيان: « زخرفتم »، « حلَّيتم ».

حال المسلمين اليوم:

بلى يا إخوتي! إنها الزخرفة . . . أجل إنَّها التحلية . . .

تعـالوا بنا نسـأل أنفـسنا: هل زخـرفْنا المسـاجـد وحلَّينا

المصاحف؟

الجواب: تشهده الأعين، وليس الخبر كالمعاينة، وهذا الأمر لا يحتاج إلى دليل:

وليْس يصِحُّ في الأذْهان شيءٌ

إذا احْتاج النَّهار إلى دليل

لقد سيم المسلمون الخسْف ... لقد ركِبَنا الهوان وامتطانا الذلُّ ... انظر إلى التذبيح والتقتيل والتشريد في أنحاء الأرض، انظر إلى أعداء الله كيف يتحكَّمون بالمسلمين؛ يُذَبِّحون الأبناء، ويقَتِّلون الشيوخ والأطفال، وبعد أن كانت الأرض تابعة لحكم المسلمين وسلطانهم؛ أصبحت الأمة ينهشها الاحتلال والاستعباد، تتداعى عليها الأمم كما تتداعى الأكلة على قصعتها.

أنَّى اتَّجهْتَ إلى الإسلام في بلدٍ

تَجِدْهُ كالطَّيْرِ مقْصُوصاً جناحاهُ

كيف كان المسلمون بالأمس؟

ارجع إلى الماضي العريق؛ لتعلم كيف كان امتداد ديار

المسلمين يتغير يوماً بعد يوم؛ بفتوحات مشرقة، وانتصارات مشرِّفة.

ثمّ اقرأ الصحف اليومية، وما إخالك تُسرُّ من خبر واحد عن الأُمة الإسلامية!

لِمثلِ هذا يذوب القلب من كمَدٍ
إنْ كان في القلْبِ إسلامٌ وإيمانُ

كان المسلم يجوب البلاد من أدناها إلى أقصاها، لا يسأله سائل، ولا يردُّه أحد، الأرض أرض الله، وهو عبد الله، كل أرض حلَّ بها الإسلام؛ أُحلَّ للمسلم أن يزورها، ويسكن فيها، ويجعلها دار إقامته.

متى دخل على المسلمين هذه الاصطلاحات البالية: هيئة الأمم المتحدة، مجلس الأمن، الجمعية العمومية؟!

إنَّ التمسح بقبور الأنبياء لا يجوز، كيف التمسح بأعتاب مجلس الأمن؟!

إنَّ التوسل بالصالحين وأئمتهم حرام، فكيف التوسُّل بأئمة الضلال والكفر؟!

يا مجلس الأمن بل يا مُقْلِقَ الأمن

مُذْ لاحَ وجْهُكَ لَمْ نَعْرِفْ سوى الوَهَنِ

إذن فليس هناك إلا الدمار؛ نراه، نسمع به، نقرأ عنه.

يا أمَّة الإسلام! ما الذي حلَّ بك؛ وفيك المصحف العظيم والسنَّة المطهَّرة؟!

ما الذي أصابك يا خير أمة أخرجت للناس؟!

إنَّ من الدَّمار الذي عمَّ بنا؛ أنّنا لم نعلم سبب الدَّمار!

كم نتباهى في زخرفة المساجد وتحلية المصاحف؟!

ويمضي الأمر هكذا ... يتنافس فيه المتنافسون، ويتسابق المتسابقون!

وإذا ما خلا المسجد من التكلُّف والزخرفة؛ عُدَّ مسجداً حقيراً في نظر الأكثرين.

وكأنَّ المصاحف لا تحلو - عند أغلب الناس - إلا بالتحلية والتزيين، وهُم بذلك يظنُّون أنهم يُحسنون صُنعاً.

ماذا لو رأينا مسجداً متواضعاً، عارياً من الزينة التي ألبَسْناها أكثر المساجد، مكسوّاً بالتواضع، بناؤه لا يكلِّف

عشر معشار ما تُكَلِّفه المساجد الأخرى؟! أننشد حوله القصائد التي تبكي الأطلال؟ أم نُعْرض عنه؟ وأيّ الأمرين فعلْنا أخطأْنا.

.... وأحلاهما مُرٌّ.

كيف كان مسجد النّبيّ ﷺ ؟

لا بُدَّ أن نتعرَّف على مسجد النّبيّ ﷺ ... ألا يسعنا ما وسِعَه ووسِعَ أصحابه؟!

مِمَّ كان سقفُ مسجده ﷺ؟

لقد كان من جريد النخل، وربما سجد ﷺ في طين وماء.

عن أبي سلمة ـ رضي الله عنه ـ قال: «انطلقتُ إلى أبي سعيد الخدري، فقلتُ: ألا تخرج بنا إلى النَّخل نتحدَّث؟ فخرج، فقال: قلت: حدّثني ما سمعت من النّبيّ ﷺ في ليلة القدر.

قال: اعتكف رسول الله ﷺ عشْر الأول من رمضان، واعتكفنا معه، فأتاه جبريل، فقال: إنَّ الذي تطلب أمامك؛ فاعتكف العشر الأوسط.

فاعتكفنا معه، فأتاه جبريل، فقال: إنَّ الذي تطلب أمامك.

قام النّبيّ ﷺ خطيباً صبيحة عشرين من رمضان، فقال: «من كان اعتكف مع النّبيّ ﷺ فليرجع؛ فإني أُريتُ ليلة القدر، وإني نُسِّيتُها، وإنّها في العشر الأواخر في وتر، وإني رأيتُ كأني أسجد في طين وماء».

وكان سقف المسجد جريد النَّخل، وما نرى في السماء شيئاً، فجاءت قَزْعة، فأمطرنا، فصلّى بنا النّبيّ ﷺ حتى رأيت أثر الطين والماء على جبهة رسول الله ﷺ وأرنبته[1]؛ تصديق رؤياه»[2].

وفي رواية لمسلم: «حتى سال سقفُ المسجد، وكان من جريد النخل، وأُقيمت الصلاة، فرأيت رسول الله ﷺ يسجد في الماء والطين».

كان سقف المسجد جريد النّخل، وربما سال السقف حين تمطر، وكان النّبيّ ﷺ يسجد في الماء والطين.

---

(١) أي: طرف أنفه.

(٢) أخرجه البخاري: ٨١٣، ومسلم: ١١٦٧.

وكيف أمر النّبيّ ﷺ أصحابه الكرام ـ رضي الله عنهم ـ أن يبنوا مسجده؟ ذلك ما يوضِّحه بقوله لأصحابه ـ رضي الله عنهم ـ: «ابنوه عريشاً كعريش موسى»؛ يعني: مسجد المدينة[1].

وكان ﷺ قادراً على أن يأمرهم ببنائه قصراً مزخرفاً مزَوَّقاً، فلما ترك ذلك ـ عليه الصلاة والسلام ـ كان تركه سنّة؛ تحمل الخير والبركة والنجاة والفوز، «وخير الهدي هدي محمد ﷺ».

وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أُمرتُ بتشييد المساجد». قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: «لتُزخْرِفُنَّها كما زخرفت اليهود والنصارى»[2].

وعن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى يتباهى الناس في المساجد»[3].

وها نحن نرى التباهي والتفاخر والتنافس والتسابق في

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا وابن أبي شيبة وغيرهما، وحسّنه شيخنا ـ رحمه الله ـ في «الصحيحة» (٦١٦).

(٢) أخرجه أبو داود «صحيح سنن أبي داود» (٤٣١) وذكر البخاري ـ رحمه الله ـ أثر ابن عباس معلّقاً في (كتاب الصلاة) «باب بنيان المساجد».

(٣) أخرجه أبو داود «صحيح سنن أبي داود» (٤٣٢) وغيره.

تزيين المساجد وزخرفتها وتحليتها . . .

وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ عن النّبيّ ﷺ قال: «من بنى لله مسجداً، ولو كمِفْحص[1] قطاة لبيضها، بنى الله له بيتاً في الجنّة»[2].

وعن جابر ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «من بنى لله مسجداً، كمِفْحص قطاة أو أصغر؛ بنى الله له بيتاً في الجنّة»[3].

وأمر عمر ـ رضي الله عنه ـ ببناء المسجد، وقال: «أكنِّ[4] الناس من المطر، وإياك أن تحمِّرَ أو تصفِّر فتفتن الناس»[5].

---

(١) المفحص: حفرة تحفرها القطاة ـ وهي نوع من اليمام ـ في الأرض لتبيض وترقد فيها.

(٢) أخرجه أحمد والبزار، وصححه شيخنا ـ رحمه الله ـ في «صحيح الترغيب والترهيب» (٢٧٢).

(٣) أخرجه ابن خزيمة في «صحيحه»، وصححه شيخنا ـ رحمه الله ـ في «صحيح الترغيب والترهيب» (٢٧١).

(٤) أي: اجعل المسجد على صفةٍ تصونهم من المطر.

(٥) ذكره البخاري معلّقاً بصيغة الجزم «كتاب الصلاة» (باب بنيان المسجد).

وعن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: «يتباهون بها، ثمّ لا يعمرونها إلا قليلاً»[1].

ما الذي خرّجه مسجد النّبيّ ﷺ ؟

ماذا لو رأينا مسجد النّبيّ ﷺ ماثلاً أمامنا كما قرأنا عنه؟!

أليس هو المسجد الذي خرّج الرجال؟ أليس هو المسجد الذي خرّج الفاتحين والأبطال؟ أليس هو المسجد الذي أنجب القادة؟ أوليس منه شعَّ النور وتحقّق النصر؟

أجل؛ إنه مسجدٌ قدم لنا الدروس في الإيثار والمحبة والتضحية والبطولة والسعادة، قدّم لنا وقدّم، وقُلْ إن شئت: إن الأرض التي نسكن؛ من أصلاب من عمروا هذا المسجد.

إنه مسجد عنايته تربية النفوس وصقلها وتهذيبها.

نعم؛ إنّها العناية بالباطن ... العناية بالجوهر ... العناية بالإنسان.

لا غرابة إذن أن يكون الدّمار على أمَّة تعتني بالجدران،

---

(١) ذكره البخاري معلّقاً بصيغة الجزم «كتاب الصلاة» (باب بنيان المسجد) ووصله أبو يعلى في «مسنده»، وابن خزيمة في «صحيحه»، وانظر «الفتح» (١/ ٥٣٩).

وتتناسى الإنسان، تعتني بالزينة والنقوش، وتتعامى عن الأخلاق والسلوك، وإن كان الأمر كذلك؛ فهلمَّ بنا نُلبِس الدواب أحسن الملابس، ونُسكنها خيار المساكن، فهل تخرج عن جنسها؟!

وها نحن الآن في مساجد ضخمة، نسجد عل البُسُط الوثيرة المزركشة، والذي وُضع على البلاط الساحر الجميل، السقوف فيها قويّة، لا يتسرَّب منها نقطة ماء، فيها من وسائل التكييف والتبريد والتدفئة ما يريح البدن، ولا أحدِّثك عما تكلِّفه المساجد، فالأرقام كبيرة كثيرة، والمبالغ هائلة عظيمة، وأما عن الزخرفة والزينة؛ فلا أظنُّك تحتاج فيها إلى كلام، وكأنها أهمُّ ما في المساجد، أو كأنها الوسيلة الدعائية المعاصرة لجذْب الناس لها، وإقناعهم بها.

ولو جئت تعدُّ الصفوف في صلاة الفجر ـ عفواً بل المصلين ـ ما احتاج الأمر إلى عناء أو مشقَّة.

ولو جئت تقارن النفوس التي تربَّت على الزخرفة والزينة والتَّنَعُّم في هذه المساجد، مع الجيل الذي كان يسجد في الماء والطين؛ لوجدْت العجب العجاب، لعلَّك لا تصدِّق أنه يعرف الإسلام؛ إنك ترى جيلاً يريد الجنّة ـ بل الفردوس ـ دون أن تغبرَّ

ملابسه، أو يشاك بشوكة.

إنك تسمع بالإيثار، والوفاء، والتضحية، وتقرأ أحسن القصص عنه، لكنّك تشتهي أن ترى عيناك من ذلك شيئاً، وهذا يُذكِّرنا بقوله تعالى: ﴿ **كَبُر مَقْتاً عند الله أنْ تقولوا ما لا تفعَلُون** ﴾[1].

فما أكثر أقوالنا وما أقلَّ أفعالنا[2]! وما أقلَّ أقوال الصحابة وما أكثر أفعالهم!

ما الذي فعَلَه أولئك الذين صلَّوا تحت سقوف جريد النّخل؟ وما هي الفتوحات التي حقَّقوها والبلدان التي وصلوها؟ وماذا فعل الذين صلّوا في المساجد المزخرفة المزيَّنة؟ وإلى أيِّ مدى طارَدَهم المحتلُّ الغاشم والعدوّ الظالم؟!

كيف كان القرآن في عهد النّبيّ ﷺ وأصحابه ـ رضي الله عنهم ـ؟

كيف كان القرآن في عهد النّبيّ ﷺ وأصحابه؟ ومتى

---

(١) الصف: ٣.

(٢) وهذا لا يعني انعدام أهل الخير والإيثار والتضحية، فهنالك ـ والحمد لله ـ من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله ـ تعالى ـ.

جُمِعَ؟ وكيف كان حال المسلمين قبل أن يجْمَعَ كهيئته اليوم؟ وكيف حالنا بعد أن جُمع وزُيِّن وحُلِّي؟ أم أنّنا أفلسْنا، فلم يبْق لنا إلا الاهتمام بالزخرفة والتَّحلية؟!

لو كان الشرع جميلاً في نفوسنا؛ ما احتجْنا إلى تزيين الجُدران والأوراق، فهذا التزيين يدلُّ على افتقارنا إلى الجمال، فلا نطلبه إلا على الأشياء!

إن الزخرفة والتزيين والتحلية قد شغلت قلوب الناس، فالنساء ـ مثلاً ـ يخرجن إلى الشوارع بألوان تتعدَّد، فالحمرةُ على الشفاه، والمساحيق البيضاء على الخدود، والظلال الخضراء على العيون، وظلت النفوس تتوق وتحنُّ إلى الألوان الباقية؛ فوجدوها في الثياب!

ولم يقف الأمر على هذا الحد، بل تعدّت الزخرفة والتحلية إلى المساجد والمصاحف!!

موقف عمر ـ رضي الله عنه ـ من المظهرية:

نظنُّ أن عزَّتنا وسعادتنا بالنُّقوش والزِّينة، وننسى قول النّبيّ ﷺ: «أيُّما أهل بيت من العرب والعجم، أراد الله بهم خيراً، أدخل عليهم الإسلام، ثمّ تقعُ الفتنُ كأنّها

الظُّلل[1]»[2].

وروى الحاكم من طريق ابن شهاب؛ قال: «خرج عمر بن الخطاب إلى الشام، ومعنا أبو عبيدة بن الجراح، فأتوا على مخاضة[3] وعمر على ناقة، فنزل عنها، وخلع خفَّيه، فوضعهما على عاتقه، وأخذ بزمام ناقته، فخاض بها المخاضة.

فقال أبو عبيدة: يا أمير المؤمنين! أأنت تفعل هذا؟! تخلع خُفَّيك وتضعهما على عاتقك، وتأخذ بزمام ناقتك وتخوض بها المخاضة؟! ما يسرُّني أنَّ أهل البلد استشرفوك!

فقال عمر: أَوْهِ[4]! لو يقل ذا غيرك يا أبا عبيدة؛ جعلته

---

(١) الظلل: واحدتها ظلّة، كل ما أظلّك أراد كأنّها الجبال والسُّحُب. «النهاية».

(٢) أخرجه أحمد والحاكم وغيرهما، وصححّه شيخنا ـ رحمه الله ـ في «الصحيحة» (٥١).

(٣) الخوض: المشي في الماء، والموضع مخاضة: وهو ما جاز الناس فيها مشاة وركباناً. «لسان العرب».

(٤) كلمة يقولها الرجل عند الشكاية والتوجُّع، وبعضهم يفتح الواو مع التشديد فيقول: «أوَّه». «النهاية».

نَكالاً[1] لأمَّة محمد ﷺ، إنّا كنَّا أذلَّ قوم، فأعزّنا الله بالإسلام، فمهما نطلب العزَّ بغير ما أعزَّنا الله به، أذلَّنا الله».

وفي رواية: «يا أمير المؤمنين! تلقاك الجنود وبطارقة الشام وأنت على حالك هذه؟! فقال عمر: إنّا قوم أعزَّنا الله بالإسلام، فلن نبتغي العزَّ بغيره».

وقفةٌ مع قول أبي عبيدة ـ رضي الله عنه ـ: «يا أمير المؤمنين! أأنت تفعل هذا؟! تخلع خُفَّيك وتضعهما على عاتقك وتأخذ بزمام ناقتك وتخوض بها المخاضة؟! ما يسرُّني أنَّ أهل البلد استشرفوك ...»، «.. تلقاك الجنود وبطارقة الشام وأنت على حالك هذه؟!».

ربما قال قائل: إنه قول كل واحد منا ... إنه مطلب صحيح، موائم للعصر، ملائم للتقدُّم!

ولكن؛ ما موقف عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ وما أدراك ما عمر؟! ... ذلك الرجل الذي فرَّت منه شياطين الإنس والجنّ، ذلك الرجل العظيم، البطل، الفاتح، العادل، التقي، صاحب رسول الله ﷺ، ثاني خلفاء المسلمين، ذلكم

---

(١) أي: عِبرة.

الذي أعزَّ الله المسلمين في حياته، ثمّ نُكبوا بموته؛ فقد جاءت الفتن وفُتِّحَت أبوابها بعد موته ـ رضي الله عنه ـ.

ماذا قال ـ رضي الله عنه ـ؟ «أوْه! لو يقل ذا غيرك أبا عبيدة؛ جعلته نكالاً لأمة محمد ﷺ، إنا كنَّا أذلَّ قوم، فأعزّنا الله بالإسلام، فمهما نطلب العزّ بغير ما أعزَّنا الله به؛ أذلّنا الله».

«كنّا أذل قوم» ... كان الكفر، وكان الشرك، كانت الأصنام، كان التوسل بغير الله، كانوا قبائل متفرقة يغزو بعضها بعضاً، وكأنك ترى الشرَّ حبيب قلوبهم، وبهجة نفوسهم.

قومٌ إذا الشرُّ أبْدى ناجِذَيْهِ لهم

طاروا إليه زُرافاتٍ ووُحْدانا

لا يسألون أخاهم حين ينْدُبُهم

في النَّائِبات على ما قال بُرهانا

وإذا لم يجدوا من يغزونه؛ فما العمل؟

وأحياناً على بكر أخِينا

إذا ما لم نجدْ إلا أخانا

كان القتل، وكان الوأد، وكان الضَّعف والخور، وكانت أيامها دولتا الفرس والروم، وكأنَّ العرب لم يكونوا أمام الدولتين شيئاً مذكوراً.

لم يقل: كُنّا أذلَّة، ولكنه قال ـ رضي الله عنه ـ: «إنا كنّا أذل قوم».

ما الانقلاب الذي حصل في حياة الأمة؟ كيف تبدلَّ الأمر غير الأمر؟ لقد أصبحوا سادة وقادة وأبطالاً.

أبالزخرفة والزينة؟! أم بالنقوش والألوان؟! أم بحُسن الملبس والمظهر؟! أم بكثرة المال والبنيان؟!

الجواب يسير غير عسير: «فأعزَّنا الله بالإسلام».

إنه الدين الحنيف، يُعزُّ من اعتنقه، ويُذلُّ من تركه ... إنها أجيال طَعمت العزَّة من تمسكها بالإسلام، رضيتْ بالله ـ تعالى ـ ربّاً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد ﷺ نبياً، رضيت بذلك القلوب، ونطقتْ بذلك الألسن، وعملت بمقتضى ذلك الجوارح ... إنها أجيال لا كالأجيال.

عجبْتُ لمن يطلب المال والخبز من الله ـ تعالى ـ ويطلب

العزَّة من غيره!

﴿ أإلهٌ مع الله ﴾[1]؟!

﴿ أأربابٌ مُتفرِّقون خيرٌ أمِ اللهُ الواحد القهّار ﴾[2]؟

فيا عَجباً كيف يُعصى الإلـ

ـهُ أمْ كيفَ يَجْحَدُهُ الجَاحِدُ

فـي كُـلِّ شـيءٍ لـهُ آيـةٌ

تدُلُّ علـى أنّـه واحِـدُ

وماذا لو رأينا في عصرنا الحاضر رجلاً يخلع خفَّيه، ويضعهما على عاتقه، آخذاً بزمام الناقة، خائضاً مخاضة ماء؟!

ما مكانة هذا الرجل في القلوب! ما تصنيف عمله! لعلّه يعمل في أحقر الأعمال؛ إنه ليس مثقّفاً أو ذا شهادة.

هذا إذا ألقينا له البال . . .

ولكنَّ هذه المعاني والأفكار تمرُّ سريعاً في لحظات، فمن

---

(١) النمل: ٦٠.

(٢) يوسف: ٣٩.

هو حتى يُؤبه له، أو يُلْتَفَت إليه؟!

إنَّ هذا الرجل حريٌّ إذا خطب ألا يُنْكَح، وإذا قال ألا يُسمع لقوله!

وماذا لو كان هذا الرجل عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ؟!

هل تتبدّل الأقوال والمفاهيم والموازين؟!

كيف لا وقد بُدِّلت مواقع الأرض في عهده؟!

كيف لا وقد تبدّل في عصره عَفَن العقائد ونتنها؛ إلى عقيدة الإسلام ونور التوحيد؟!

ألسنا نسعى أن نكون على منهاج الخلفاء حتى ننجو؟ ذلك لأنهم كانوا على منهاج النّبيّ ﷺ، ولم يأت النّبيّ ﷺ بشيء من عنده، ﴿**وما ينطِقُ عن الهوى إن هو إلا وحيٌ يوحى**﴾[1] إذن؛ فاتباع هذا السبيل هو اتباع لأوامر الله ـ تعالى ـ.

هل فاتنا قوله ـ تعالى ـ: ﴿**ومن يُشاقق الرسول من**

---

(١) النجم: ٣، ٤.

بَعْد ما تبيّن لهُ الهدى ويتّبع غير سبيل المؤمنين نُولِّه ما تولّى ونصْلِه جهنَّم وساءت مصيراً ﴾[1]؟

ومن هم المؤمنون؟

لقد شهد الله ـ تعالى ـ للصحابة ـ رضي الله عنهم ـ بالإيمان، فمن ذا الذي يشهد لسواهم في عصرنا الحاضر!

الشخصية الإسلامية تؤثِّر ولا تتأثر:

إنه درس عظيم، نتعلَّمه من صاحب رسول الله ﷺ، درس الثِّقة بالنفس، وهو أساس في بناء الشخصية المسلمة.

إنَّ الإنسان المسلم لا ينبغي أن يكون كريشة في فلاة؛ يقلِّبها المجتمع ظهراً لبطن، إن استحسن أمراً استحسنه معه، وإن استقذر أمراً استقذره معه.

إنّ المسلم الداعي الواعي لهو القائد الذي يقود الناس؛ يُعَلِّمهم، ويربِّيهم، ويؤثِّر فيهم.

إنه يستقي الخُلُق من القرآن والسنَّة، فالحَسَن عنده ما حسَّنه الشَّرع، والقبيح ما قبَّحَهُ الشرع.

---

(١) النساء: ١١٥.

إنَّهُ يؤثِّر ولا يتأثَّر ... إنه يقود للخير ولا يُقاد للشر ... إنه المعلم والمربِّي والقائد.

﴿ومن أحسنُ قولاً ممَّنْ دعا إلى الله وعَمِلَ صالحاً وقال إنَّني من المسلمين﴾[1].

بلى؛ إنّ أقواله أحسن الأقوال، وأفعاله أحسن الأفعال، فلم التأثر إذاً من قول القائلين أو الناقدين من أين استقوا هذه الانتقادات؟ وما ميزان العيوب والذنوب!

الفهم الصحيح للعزَّة:

إنَّ العزَّة تنبع من داخل الإسلام لا من خارجه، فإذا ما سمعت شخصاً يأتيك بفهمٍ للعزّة والتقدّم، أو يعترض عليك من أفعال؛ زعماً منه أنها لا تليق؛ فقل له: ﴿قُلْ هاتوا بُرْهانكُمْ أنْ كُنْتُم صادقين﴾[2]، ثمّ لا تنس أن تتلو عليه قول الله ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿بشر المُنافقين بأنّ لهم عَذاباً أليماً. الذين يتَّخذون الكافرين أولياء من دون

---

(١) فصِّلت: ٣٣.

(٢) البقرة: ١١١.

المؤمنين أيبْتغُون عِندهم العزَّة فإنّ العِزَّة لله جميعاً ﴾[1].

إن المنافقين أولياء الكافرين؛ يزعمون ويدّعون أنَّ العزَّة تُبْتغى من الكفار ... إنّهم لم يبتغوها من الله ـ تعالى ـ لضعف عقيدتهم، وخراب أفئدتهم، فراحوا إلى الكافرين يبتغونها منهم، وأتوا إلينا بمقوِّمات لها، وموازين عجيبة، تخالف العزّة التي يريدها الله ـ تبارك وتعالى ـ ويرضى عنها.

موازين العزة عند غير المسلمين:

أما يرون أنَّ الملابس الأروبية الآن، هي رمز التقدّم والحضارة والمدنيّة والفهم والتطوُّر والذكاء؟!

وكيف يرونَ ربطة العنق؟

قالوا: لا يضعها إلا فهيم!

لقد استوردنا السيارات والطائرات والملابس من الشرق والغرب ... ومعها العزّة المزعومة ... فماذا نفعل بقوله ـ تعالى ـ: ﴿ فإنَّ العزَّة لله جميعاً ﴾[2]؟

---

(١) النساء: ١٣٨ ـ ١٣٩.

(٢) االنساء: ١٣٩.

هؤلاء لا يؤمنون بالرسول ﷺ، ولا بأحاديثه، ولا بالموازين التي وردت بها، فمقوِّمات العزة عندهم نابعة من عقيدتهم الفاسدة، فلماذا لا يقول كلٌّ واحد منا لهم: ﴿لكم دينكم وليَ دِينِ﴾[1]؟

إنَّ الله ـ تعالى ـ يفتح باب العزّة فيقول: ﴿من كان يُريد العِزَّة فللّه العِزّة جميعاً﴾، ونحن نلجأ إلى غيره سبحانه!!

هؤلاء يعدون الرسول ﷺ والمؤمنين أذلَّة، فقد أصدروا قواعد في العزَّة وأصَّلوا فيها أصولاً، ولحقوا بعبد الله بن أبيّ ابن سلول رئيس المنافقين[2] لمَّا قال: ﴿لَئِن رجعنا إلى المدينة لَيُخْرِجنَّ الأعزُّ منها الأذلَّ﴾، وربنا ـ سبحانه وتعالى ـ يقول القول الفصل: ﴿ولله العزَّةُ ولِرسوله وللمؤمنين ولكنَّ المُنافقين لا يعملون﴾[3].

فلنستمدَّ العزة إذن من الله ـ تعالى ـ ومن سنَّة رسول الله ﷺ، ولْنَبْحث عنها عند المؤمنين، فإن كنا نؤمن بالله ـ تعالى ـ

---

(١) الكافرون: ٦.

(٢) انظر صحيح البخاري (٤٩٠٧)، وصحيح مسلم (٢٥٨٤).

(٣) المنافقون: ٨.

فلماذا لا نسلك سبيل التصديق والإيمان؟! أو ليس هو سبحانه القائل: ﴿ **ولكنَّ المنافقين لا يعلمون** ﴾؟! لماذا نسلك سبيل الذين لا يعلمون؟! لا يعلمون حقيقة النّبيّ ﷺ ... لا يعلمون حقيقة الإيمان والمؤمنين ... يسمُّوننا أذلة ... ومع ذلك نرضى عنهم، ونحبُّهم، ونأخذ عنهم موازين العزة الزائفة!!

أليست الفتاة العفيفة البِكر في ميزان هؤلاء رجعية متأخرة؟! كيف تأخَّر فضُّ بكارتها لولا أنها متوحِّشة؟!

ما ميزان الأخلاق عند هؤلاء؟ ما شعورهم تجاه من خالفهم في اللباس؟ إنّه مُعَقَّد، حتى بلغ الأمر بنا، أننا لا نجرؤ على ارتداء الملابس العربية المتَّفقة مع سمات الزيِّ الإسلامي!

عوداً إلى قول عمر ـ رضي الله عنه ـ: «لو يقل ذا غيرك أبا عبيدة؛ جعلته نكالاً لأمة محمد ﷺ»:

لقد عفا عمر عن أبي عبيدة ـ رضي الله عنهما ـ لما لَه عنده من مقام وقدر، وهل يكون ذلك العقاب لغير ذنبٍ عظيم؛ أن يُجْعَل المرءُ نكالاً لأمّة محمد ﷺ؟

فما هو الذنب الذي فعله؟ ...

إن عمر ـ رضي الله عنه ـ يرى أن ذلك الفكر سامٌّ، لو سرى في حياة الأمّة لأودى بحياتها ... إنّه يتوعّد أنْ يجعلَ من يقول هذا ـ أو مثله ـ نكالاً لأمّة محمد ﷺ.

وهكذا كانت العِزَّة ودام المجد في عهد خليفةٍ راشدٍ عظيم؛ كان يسير على هذه السنّة العظيمة،.

كان يزن ما يسمع من الكلمات، ويُصوِّب ما ينبغي تصويبه ... كيف لا وقد قال فيه ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «لو كان بعدي نبيٌّ لكان عمر بن الخطاب»[1]!

إنه الإلهام الذي ذكره النّبيّ ﷺ في الحديث: «قد كان فيما مضى قبلكم من الأمم أناس محدَّثون، فإن يكُ في أمتي أحدٌ منهم؛ فهو عمر بن الخطاب»[2].

ها نحن الآن نغرق في أقوال وكلمات وأصول وقواعد وموازين، تربو بكثير عن هذه العبارة في معانيها، بل لا وجه

(١) أخرجه أحمد والترمذي والحاكم وغيرهم، وحسّنه شيخنا ـ رحمه الله ـ في «الصحيحة» (٣٢٧).

(٢) أخرجه البخاري: ٣٦٨٩، ومسلم: ٢٣٩٨.

وفي «صحيح مسلم» قال ابن وهب: تفسير محدثون: ملهمون.

للمقارنة، تلك التي أوحتها شياطين الإنس والجنِّ من شتَّى البقاع!

نغرق في الأقوال، وليتنا في هذا الموطن ممَّن يقولون ما لا يفعلون.

المظهرية الجوفاء لا تخدم مصلحة الأمة:

قالها أبو عبيدة ـ رضي الله عنه ـ وما قالها عن هوى أو حظِّ نفس؛ إنه أراد مصلحة الأمّة ... إنه رجل قائد، يريد أن يكون الإنسان المسلم ـ ولا سيما الخليفة ـ عزيزاً مكرماً أمام البشرية، يريد أن يكون الخليفة مهيب الجانب، مصون الشخصية، ولذلك قال لعمر ـ رضي الله عنه ـ: «تلقاك الجنود وبطارقة الشام، وأنت على حالك هذه!».

«ما يسرُّني أنَّ أهل البلد استشرفوك»!

كيف تلقاه الجنود وهو بذلك الحال؟! كيف تلقاه بطارقة الشام وهو في ذلك المنظر؟! كيف يستشرفه أهل البلد وهو على تلك الهيئة؟! لا بُدَّ أن يظهر عمر ـ رضي الله عنه ـ عزيزاً قويّاً كريماً عظيماً أمام الناس.

إنه لم يُرِدْ إلا رضوان الله ـ تعالى ـ ... إنّه لم ينظر إلا

لمصلحة الأمة، وصيانة شخصية عمر جزء منها.

ولكن؛ هل رجَّح أمير المؤمنين ـ رضي الله عنه ـ هذه المصلحة؟ هل تنازل عمّا رآه الحق والصواب بل إنّه حول المصلحة يُدندن، إنه ما قال الذي قاله؛ إلا لحياة الأمة وسعادتها ومجدها، وإلا فبأيٍّ لسان كان يتحدّث عمر ـ رضي الله عنه ـ؟ بأي ضمير تكلّم؟ أبضمير المفرد أم الجمع؟ فلنتدبَّر المقولة ولنتأمَّل العبارة:

«إنّا كنّا أذلَّ قوم، فأعزنا الله بالإسلام، فمهما نطلب العزَّ بغير ما أعزنا الله به، أذلَّنا الله».

علامَ تدل كلمة (إنَّا) وجارتها بالجنب (كنّا)، ثمّ كلمة (قوم)، أتدل هذه على مفرد؟ علام تدل كلمة (نطلب) و (أعزَّنا)، و(أذلنا)؟ ...

بلى؛ إنه ينظر من منظار مصلحة الأمة، ولو كان ينظر لمصلحته الخاصة؛ لشكر أبا عبيدة ـ رضي الله عنه ـ ولَلبس أحسن الثياب، وطَعِم أحسن الطعام، وقُضِي الأمر!

تأمَّلاً في مواقف هؤلاء الرجال؛ كم يُؤثِّرون في الرّعية؟ كم يُلاقون من الأتباع والأحباب؟ ما أجمل أن يأتي التطبيق

من هذا الصنف؛ ممّن يكونون في مقام القدوة من ذوي المناصب والولاية والجاه والسلطان!

وهكذا مضى الصّادقون من ذلك الجيل الفريد على نفس السبيل، مهما كانت مناصبهم.

عن عبد الله بن شقيق؛ قال: «كان رجل من أصحاب النّبيّ ﷺ عاملاً بمصر، فأتاه رجل من أصحابه، وهو شَعِث[1] الرأس مُشْعانٌّ[2]؛ قال: ما لي أراك مشعانّاً وأنت أمير؟! قال: كان ينهانا عن الإرفاه. قلنا: ما الإرفاه؟ قال: الترجُّل كل يوم»[3].

وله طريق أخرى عن يزيد بن هارون عن الجريري عن عبد الله بن بريدة: «أنَّ رجلاً من أصحاب النّبيّ ﷺ رحَلَ إلى فضالة بن عبيد وهو بمصر، فقَدِمَ عليه وهو يمدُّ ناقة له، فقال: إنّي لم آتك زائراً، وإنَّما أتيتك لحديثٍ بلغني عن

---

(١) أي: متفرِّق الشعر.

(٢) هو منتفش الشعر، ثائر الرأس.

(٣) أخرجه النسائي وغيره، وصحّحه شيخنا ـ رحمه الله ـ في «الصحيحة» (٥٠٢).

رسول الله ﷺ، رجوتُ أن يكون عندك فيه علم. فرآه شعثاً، فقال: ما لي أراك شَعثاً وأنت أمير البلد؟ قال: إنَّ رسول الله ﷺ كان ينهانا عن كثير من الإرفاه[1]. ورآه حافياً فقال ما لي أراك حافياً؟ قال: قال: إنّ رسول الله ﷺ أمرنا أن نحتفي أحياناً»[2].

دهشةٌ شديدة تسارع إلى الذهن؛ أن يرى الأمير ثائر الرأس، شعثاً، مشعانّاً، حافياً!

ولكن الدهشة تزول؛ إذا علِمْنا أن هذا من أحوال المسلم، فهو يحتفي وينتعل، ويمتشط ويدع ذلك، إنه يشعر بقوَّة الشخصية والثقة، يُحسُّ بأنَّ هذه المظهريات لا تتحكَّم

---

(١) المراد هنا: كثرة التدهُّن والترجُّل والتنعُّم، بدليل الرواية السابقة، وأصل المعنى: التوسع في المشرب والمطعم ولين العيش. وانظر «النهاية».

(٢) أخرجه أحمد وأبو داود والنسائي، وانظر «الصحيحة» (٥٠٢).

وتابع يزيد بن هارون حمادُ بن سلمة عند البيهقي في «الشعب»، وروايته عنه قبل الاختلاط، فصحّ الحديث. والحمد لله.

وقد أودع هذه الفائدة شيخُنا ـ رحمه الله تعالى ـ في الطبعة الجديدة.

به أو تأسر شخصيَّته، بل إنّه هو الذي يحكمها ويأسرها، أما الموازين المعاصرة؛ فقد جعلت هذه الأشياء أساساً في الحكم على شخصيّة الإنسان وقيمته، ويا لها من مقاييس!

ماذا لو خرج العلامة حافياً بين الناس؟ أينقص علمه؟! أم يقلُّ قدرُه؟!

ماذا لو انتعل الغبيُّ الجاهل أحسن النّعال؟ أيصبح عالماً فقيهاً نابغة؟!

ماذا لو لبس المعتوه أحسن الثياب وأجملها؟ أيغدو ذا لب فهيم؟!

لقد اكتفى الناس الآن بارتداء الملابس الحسنة، والامتشاطات الساحرة، ووضْع العطور المنعشة، ثمّ إنّهم إذا خلوا بمحارم الله ـ تعالى ـ انتهكوها.

هؤلاء عندنا أفاضل الناس! ما أظرفهم وما أحسنهم! ولربّما لم يكن في قلب أحدهم مثقال ذرَّة من خردل من إيمان!!

لا بُدَّ من الثقة بالنفس:

لا بدَّ من الثِّقة بالنفس، لا بدَّ من بناء الشخصية

الإسلامية بناءً شامخاً، على أساس ثابت قويٍّ، لا تُزعزِعه العواصف، ولا تخدشه الصواعق.

وإن كان أهل الضلالة والعمى قد وثقوا بأنفسهم، ولم يستحيوا مما ينبغي الاستحياء منه؛ فما ظنُّنا!

إنَّهُم لم يستحيوا من التشبُّه بالنساء، ولا من المجاهرة بالزنى، ولا من إقرار اللواط في قراراتهم وقوانينهم، فأي قُبح أعظم من هذا؟! ألسنا أوْلى منهم بهذه الثِّقة ونحن على الحقِّ؟!

المراوحة في التنعُّم:

إنَّ اللباس الحسن والترجُّل والتطيُّب من الأمور المشروعة، ومن زينة الحياة الدُّنيا؛ متَّع الله بها عباده، على ألا تكون هي الأساس والأصل والميزان والمقياس؛ في الحكم على الناس.

ولنحذر أن تقودنا هذه المباحات؛ إلى احتقار من لم ينعم بها، أو ابتُلي بحرمانها، أو ترك شيئاً منها تواضعاً لله ـ سبحانه ـ.

عن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ عن النّبيّ ﷺ قال: «لا يَدْخُل الجنّة من كان في قلبه مثقال ذرَّةٍ من كِبْر».

قال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسنة.

قال: «إنَّ الله جميلٌ يحبُّ الجمال، الكِبْر: بَطَر الحق[1]، وغَمْط النّاس[2]»[3].

لقد خشي الصحابة ـ لشفافية قلوبهم ـ أن يكون التجمُّل في اللباس من الكِبْر، فبيَّن رسول الله ﷺ أن هذا من الجمال الذي يحبُّه الله ـ تعالى ـ ثمّ بيّن لهم الكِبْر وحقيقته، وعرَّفه لهم ليجتنبوه، فالكِبْر هو ردُّ الحق ودفعه، واحتقار الناس وازدراؤهم.

إنّه لَيُخشى على من داوم على الترجُّل والامتشاط والتنعُّم وارتداء الملابس المكويَّة والأنيقة؛ أن يحتقر ويسخر ممّن ترك شيئاً منها.

فمن المناظر المرفوضة في مجتمعنا، أن يُرى المرء بثوب غير مكويٍّ، أو شعر غير مُرَجَّل، بل إنَّ مثل هذه الأمور تثير

---

(١) أي: دفع الحقّ.

(٢) احتقارهم.

(٣) أخرجه مسلم: ٩١.

عندهم السخرية والاستهزاء ... وهذا هو الكِبْر الذي حذّر منه رسول الله ﷺ.

لقد بيّن لنا رسول الله ﷺ ثواب من يترك اللباس تواضعاً لله ـ تعالى ـ مع القدرة عليه؛ في الحديث الذي يرويه عنه معاذ بن أنس ـ رضي الله عنه ـ إذ يقول فيه ﷺ: «من ترك اللباس تواضعاً لله وهو يقدر عليه؛ دعاه الله يوم القيامة على رؤوس الخلائق، حتى يخيَّرَ من أيّ حُلَل الإيمان[1] شاء يَلبَسُها»[2].

فالمراوحة بين التنعُّم والترك في اللباس ونحوه، تجمع بين فضيلتين: الإحساس بنعم الله ـ سبحانه ـ ووجوب شُكْره، وتحقيق التواضع وعدم السخرية من الناس.

وصية رسول الله ﷺ بالمساكين:

بل إنّ لقاء المساكين والفقراء، من الوسائل الطيبة، التي تحقّق التواضع، وتحطّم موازين المادّية الزائفة والمظهرية

---

(١) أي من أيّ حُلل أهل الإيمان كما قال العلماء.

(٢) أخرجه الترمذي «صحيح سنن الترمذي» (٢٠١٧) وأحمدوالحاكم وغيرهم، وحسنه شيخنا ـ رحمه الله ـ في «الصحيحة» (٧١٨).

الجوفاء، ونحن نرى هذا في وصية رسول الله ﷺ لأبي ذرٍّ ـ رضي الله عنه ـ إذ يقول: «أوصاني خليلي بسبع: بحُبِّ المساكين، وأن أدنو منهم، وأن أنظر إلى من هو أسفل مني، ولا أنظر إلى من هو فوقي، وأن أصِلَ رَحمي وإنْ جفاني، وإن أُكْثِرَ من قول: (لا حول ولا قوة إلا بالله)، وأن أتكلّم بمرٍّ الحق، وأن لا تأخذني بالله لومة لائم، وأن لا أسأل الناس شيئاً»[1].

لقد أوصى الرسول ﷺ بسبعٍ، تحتاج كلُّها إلى مجاهدة نفسٍ عظيمة، فقد أوصى ـ عليه الصلاة والسلام ـ بالقناعة والزهد في الدُّنيا، وقول الحق والشجاعة وعدم المداهنة والمجاملة، وكفِّ الطلب وعدم السؤال، وصلة الرحم وإن بادر بالجفاء والقطيعة، والإكثار من قول: لا حول ولا قوّة إلا بالله، وعدم الحسد.

بيْد أن النّبيّ ﷺ بدأ وصيته بحبِّ المساكين، والدنوّ منهم، وهو ليس بالأمر السهل؛ لأنّ تنفيذه وإمضاءه يحتاج

---

(١) أخرجه الطبراني، وصححه شيخنا ـ رحمه الله ـ في «صحيح الترغيب والترهيب» (٨١١)، وانظر «الصحيحة» (٢١٦٦).

إلى تطهير القلوب من الكِبْر والعُجب؛ كما أنّه يتطلّب كثرة الزيارات، وإنّه ليسيرٌ على من يسّره الله له، عسيرٌ لما سوى ذلك؛ فإنَّ زيارة المساكين لا ترتبط بمصلحة ماديّة، أو نفْعٍ عاجل.

فلا تنسَ - يرحمك الله - أن تدعوَ بدعاء النّبيّ ﷺ: «اللهم أحيني مسكيناً، وأمتني مسكيناً، واحشرني في زمرة المساكين»[1].

الضعفاء والفقراء هم أهل الجنّة:

لقد عظمت المظاهر في القلوب، وضعف إقبال القلوب على الله - سبحانه وتعالى - فها نحنُ نعظِّم المادة والشهوات وأصحاب الأموال والجاه تعظيماً شديداً؛ ربَّما فاق حبّنا لأصحاب التديُّن، وإنّك ترى حبَّ من يحمل لقب (الدكتور) يفوق حبَّ من لا يحمله، وإن تقدّم غنيٌّ وفقير للزَّواج؛ قُدِّم الغني وإن قلَّ التزامه بدينه، وأُغْفلَ الفقير الذي يُرضى عن دينه وخُلُقه.

---

(١) أخرجه ابن ماجه وغيره، وانظر «الصحيحة» (٣٠٨)، وللشيخ علي حسن عبدالحميد - حفظه الله - جزء خاصٌّ في تخريجه.

إن شريعة الله ـ سبحانه ـ تعتني بتربية النفوس وتزكيتها عناية عظيمة، وإنَّنا للننسى أو نتناسى أو نجهل أو نتجاهل قول الله ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿**واصبر نفسك مع الذين يدعون ربَّهم بالغداة والعشيِّ يريدون وجهَه ولا تَعْدُ عيناك عنهم تُريدُ زينة الحياة الدُّنيا ولا تُطع من أغْفلْنا قلبه عن ذِكْرِنا واتَّبَعَ هواه وكان أمرُهُ فُرُطا**﴾[1].

إنها دعوة لجهاد النفس، دعوةٌ للصبر ورباط القلب مع الصالحين والأتقياء، ولو كانوا فقراء ضعفاء مساكين، ذلك لأنهم يريدون وجهه ـ سبحانه ـ وإنَّ الله ـ تعالى ـ ينهى عن تجاوز العيون والأنظار إلى سواهم؛ ابتغاء زينة الحياة الدُّنيا.

حقّاً؛ أن الأمر يحتاج إلى صبر، ويفتقر إلى ثبات.

وهل غاب عن قلوبنا أن هؤلاء الضعفاء الفقراء هم أهل الجنّة؟!

ذلك ما يرويه حارثة بن وهب ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «ألا أُخبركم بأهل الجنة؟ كل

---

(١) الكهف: ٢٨.

ضعيف[1] مُتضعَّف[2] لو أقسم على الله لأبَّره، ألا أخبركم بأهل النار؟ كلُّ عُتُلٍّ[3] جوَّاظ[4] مُستكْبر»[5].

هذا خير من ملء الأرض من مِثل هذا:

وعن سهل بن سعد الساعدي ـ رضي الله عنه ـ أنّه قال: «مرَّ رجل على رسول الله ﷺ، فقال لرجل عنده جالس: ما رأيك في هذا؟ فقال: رجل من أشرف الناس، هذا ـ والله ـ حريٌّ إن خطب أن يُنكح، وإنْ شَفع أن يُشفَّع. قال: فسكت رسول الله ﷺ. ثمّ مرَّ رجل، فقال له رسول الله ﷺ: ما رأيك في هذا؟ فقال: يا رسول الله! هذا رجل من فقراء المسلمين، هذا حريٌّ إن خطب أن لا يُنكَح، وإنْ شفع أن لا يُشفَّع، وإن قال أن لا يُسمع لقوله. فقال رسول الله ﷺ:

---

(١) ضعيف: ذو نفس ضعيفة؛ تواضعاً وضعف حال في دنياه.

(٢) أي: يستضعفه الناس ويحتقرونه.

(٣) جاء في «اللسان»: «العُتُل: الشديد الجافي والفظّ الغليظ من الناس، والعتلّ: الشديد، وقيل: الأكول المَنوع، وقيل: الشديد من الرجال والدواب».

(٤) هو الجَموع المَنوع: وقيل: الضخم المختال، وقيل غير ذلك.

(٥) أخرجه البخاري: ٤٩١٨، ومسلم: ٢٨٥٣.

هذا خير من ملء الأرض مِن مِثل هذا»[1].

هذا هو ميزان المظهرية في كل عصر ومصر، يُفْتح الباب على مصراعيه لكل غنيٍّ ثريٍّ، أو ذي سلطان، أو جاه، أو منصب[2]؛ للنكاح، والاستماع، والاحترام، وتوصد الأبواب أمام الفقراء؛ قولاً، ونكاحاً، واستماعاً، واحتراماً.

يا لسحر المال واللباس والمظهرية! كم قَتَل وقَتَل! ولكنّه لم يدفع الدِّية ولم يؤخذ منه الثأر.

عجباً عجباً! لماذا يُقدَّم هؤلاء في القول والنّكاح والتصدُّر؟ آلمال قدَّمهم؟ فلا داعي إذا أن نعلِّم أبناءنا ونربيهم، حسبُنا أن نصبَّ عليهم المال، وندلَّهم على طرق اكتسابه! أم اللباس صدَّرهم؟ فلا حاجة إذن أن نسلك أساليب الفضيلة والأخلاق، ولنستزد من مصانع اللباس والأقمشة!

---

(١) أخرجه البخاري: ٦٤٤٧.

(٢) لا يعني هذا أنني أغفل دور الأغنياء الشاكرين الأتقياء، فهؤلاء يقدمون للمجتمع الإسلامي ما يعجز عن تقديمه الفقراء المخلصون، وسيأتي - إن شاء الله تعالى - تحت عنوان: (أغنياء لم تخدعهم المظهرية).

لقد أراد رسول الله ﷺ أن يُصحِّح الموازين، فبيَّن أنَّ ذلك الرجل، الذي لا يُلتَفَتُ إليه، ولا يُسمع لقوله؛ خيرٌ من ملء الأرض من مثل ذلك الذي لفت الأنظار، وجذب الأبصار.

إنّ الدَّمار ليحيط بالأمّة، التي لا تعرف لمن تسمع وتُنْصِت، ولا تعلم من تُزوِّج ممَّن تأبى، ولا تُنزل الرجال منازلهم.

إن الهلاك ليحيق بالمجتمع، الذي يستمع لمن لا يُحسن القول، ويُعرض عن أهله وأصحابه.

... «هذا خيرٌ من ملء الأرض من مثل هذا» ...

كلمات النبوّة في حروف من نور، تُبَدِّد الظلمات، وتحطِّم الموازين الفاسدة.

وهكذا؛ لو أنّ الله ـ سبحانه ـ قدَّر أن تُملأ الأرض، من مثل هذا الغني المحبوب المرغوب المحسود؛ لما كان ذلك يعدل ذلك الفقير الضعيف.

فلتردِّد قلوبنا بكلِّ ثقة واطمئنان قول رسول الله ﷺ: «إنَّ الله لا ينظُرُ إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظُرُ إلى

قلوبكم وأعمالكم»[1].

فالعبرة كل العبرة بصلاح القلوب والأعمال، لا بالصور والأموال، ولا بالمظاهر والشكليّات، فالله ـ تعالى ـ هو الذي خَلَق صُورنا، وهو ـ سبحانه ـ الذي رزقنا، ولكنّه ـ عزّ وجلّ ـ لا ينظر إلى هذا ولا إلى ذاك.

فما بالُنا ننظُرُ كل النظر إلى الصور والأموال؟! ما بال الأعين قد عميت عن العمل والعطاء؟!

نصر الأمة مرتبط بالضعفاء:

إنها دروس وعِبَرٌ، نتعلَّمها من هذا الحديث ... إنها قصَّة تتكرَّر ...

كم نعظِّم ونبجِّل من مثل ذلك الرجل الشريف، ونستصغر من مثل ذلك الضعيف!

كم نُنْكِحُ بناتنا ذوي الشهادات، ونترك أصحاب الصلوات!

كم نزوِّجهُنَّ من أصحاب المناصب والسلطان، ونذر رجال التقوى والإيمان!

---

(١) أخرجه مسلم: ٢٥٦٤.

كم نقبل شفاعة أصحاب الأموال، ونرفض شفاعة الفقراء.

أفلا نتذكَّر قول رسول الله ﷺ: «إنّما ينصُرُ الله هذه الأمّة بضعيفها؛ بدعوتهم، وصلاتهم، وإخلاصهم»[1]؟

نعم؛ إنَّ نصر الأمة مرتبط بالضعفاء والمساكين؛ بدعوتهم وصلواتهم، وإخلاصهم. وماذا ـ بربِّكم ـ يقابل النّصر إلا الهزيمة؟

جديرٌ بنا أن نزوِّج بناتنا لهؤلاء، وأولى بنا أن نسمع كلامهم، ونقبل شفاعتهم.

سبحان ربّنا كيف تبدّلت الموازين غير الموازين، والمقاييس غير المقاييس؟!

لقد غدا صبُّ الاهتمام على ذوي السلطان والجاه والمال والمناصب؛ طريقنا القويم إلى النصر! إنه السبيل إلى قيام المجتمع الإسلامي ـ زعموا ـ! ولا نبالي بالفقراء والضعفاء

---

(١) أخرجه النسائي «صحيح سنن النسائي» (٢٩٧٨) وغيره، وهو في البخاري برقم: ٢٨٩٦ دون ذكر الإخلاص، وانظر «صحيح الترغيب والترهيب» (٥).

والمساكين، ومنّا من يسوّغ هذا، فيقول: هؤلاء قد اطمأننا على حُسن إسلامهم، فنريد الاهتمام بمن لم يحسن إسلامهم!!

ترى الرجل النحيف فتزدريه:

وفي هذا المقام؛ يسرُّني أن أُورد قصيدة الشاعر عباس بن مرداس، إذ يقول:

ترى الرَّجُل النَّحيف فتزْدريهِ
وفي أثوابه أسَدٌ مزير[1]
ويُعجِبُك الطَّرِيرُ[2] فتَبتَليه
فيُخْلِف ظنَّك الرَّجل الطَّرِيرُ
فما عظم الرِّجال لهم بِفَخْر
ولكن فخْرُهُم كرمٌ وخيرُ

---

(١) العاقل الحازم.

(٢) ذو المنظر والرُّواء والهيئة الحسنة.

بُغَاث[1] الطَّيْرِ أكثَرُها فِراخاً

وأُمُّ الصَّقْرِ مِقْلاتٌ[2] نَزورُ[3]

ضِعاف الطّير أطولُها جُسوماً

ولَمْ تَطُلِ البُزاةُ ولا الصُّقُورُ

لقد عَظُم البعيرُ بغيرِ لُبٍّ

فلم يَسْتَغْنِ بالعِظم البَعيْرُ

يُصرِّفُهُ الصَّغِيْرُ بكُلِّ وَجْهٍ

ويَحْبِسُهُ على الخسْفِ[4] الجريرُ[5]

وتضربه الوليدة بالهراوى[6]

فلا غِيَرٌ لَدَيْهِ ولا نكيرُ

---

(١) ما لا يصيد منه.

(٢) التي لا يعيش لها ولد، أو التي تضع واحداً ثمّ لا تحمل.

(٣) من النَّزر، وهو القليل.

(٤) الذل.

(٥) الحبل.

(٦) جمع هراوة: وهي العصا.

فـــإنْ أكُ في شِـــراركـم قليـــلاً

فـــإنّي في خـيـــاركـم كـــثـيـــرُ

رضى الله ـ تعالى ـ لرضى المتّقين وغضبه لغضبهم:

سبحان الله! كيف غفلنا عن قوله ﷺ: «رُبَّ أشعثَ أغبرَ، مدفوع بالأبواب، لو أقسم على الله لأبرَّه[1]»!

كم قَرُب هذا من الله ـ تعالى ـ مع أنّه بعيد من النّاس، مدفوع بالأبواب.

عن عائذ بن عمرو ـ رضي الله عنه ـ: «أنَّ أبا سفيان أتى على سلمان وصهيب وبلال ـ رضي الله عنهم ـ في نفر، فقالوا: والله ما أخَذَت سيوف الله من عُنُق عدوّ الله مأخذها[2]. قال: فقال أبو بكر: أتقولون هذا لشيخ قريش وسيِّدهم؟ فأتى النّبيّ ﷺ، فأخبَره، فقال: «يا أبا بكر! لعلّك أغضبتهم، لئن كنت أغضبتهم؛لقد أغضبت ربَّك».

وأتاهم أبو بكر، فقال: يا إخوتاه! أغضبتُكم؟ قالوا: لا؛

---

(١) أخرجه مسلم: ٢٦٢٢.

(٢) وكان كافراً في الهدنة، بعد صلح الحديبية.

يغفر الله لك يا أُخيَّ»[1].

لقد عظَّمَ الله من شأن عباده المؤمنين المتّقين، إنه ليرضى ـ سبحانه ـ لرضاهم، ويغضب لغضبهم، ذلك لأنهم يمشون على نور من الله ـ تعالى ـ وهؤلاء ربَّما ارتدوا الملابس الزهيدة، إن غابوا لم يُسأل عنهم، وإن حضروا لم يُؤبه لحضورهم.

تأمل ـ رحمك الله ـ كيف كان يوجِّه رسول الله ﷺ الأمّة؛ من خلال خليفة المسلمين الراشد الأول، فيقول له: «يا أبا بكر! لعلك أغضبتهم»، لقد كان ـ عليه الصلاة والسلام ـ حريصاً ألا يغضب أصحابه ـ رضي الله عنهم ـ وإنَّ غضبهم ليغضبه ويحزنه ويؤلمه.

وهكذا ينبغي لكل مسلم؛ أن يخشى غضب إخوانه، ويسعى لكسب رضاهم وودِّهم، في ظلِّ مرضاة الله ـ عزّ وجلّ ـ.

إنَّه لا سبيل لمرضاة الله ـ تعالى ـ بتجاهل المؤمنين الطائعين.

إنَّ ادّعاء حبِّ الله ـ تعالى ـ والحرص على رضاه، دعاوى

---

(١) أخرجه مسلم: ٢٥٠٤.

لا تُصدَّق إلا باتِّباع الكتاب والسنَّة، وحبِّ الطائعين المؤمنين.

فاحذر إذن أن تُغضب إخوانك المتّقين، فيمسّك غضب الله ـ تعالى ـ.

زِنْ قولك وفعلك وسلوكك معهم، وحذارِ حذارِ من الزيغ والضلال.

تأملات في قوله ـ تعالى ـ: ﴿عَبَسَ وتولَّى ...﴾:

قال الله ـ تعالى ـ: **﴿عَبَسَ وتولّى. أنْ جاءهُ الأعمى. وما يُدْرِيك لعلَّه يزكى. أو يذَّكَّرُ فتَنْفَعَهُ الذِّكرى. أمّا من استغنى. فأنت له تَصدَّى. وما عليك ألا يزَّكَّى. وأمّا من جاءك يَسْعَى. وهو يَخْشَى. فأنت عنه تلهَّى. كلا إنَّها تذْكِرة فمن شاء ذكره﴾**[1].

عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: «أُنزل **﴿عبس وتولّى﴾** في ابن أمِّ مكتوم الأعمى، أتى رسول الله ﷺ، فجعل يقول: يا رسول الله! أرشِدْني. وعند رسول الله ﷺ

---

(١) عبس: ١ ـ ١٢.

رجل من عظماء المشركين، فجعل رسول الله ﷺ يعرِض عنه ويُقْبِل على الآخر، ويقول: أترى بما أقول بأساً؟ فيقول: لا؛ ففي هذا أُنزِل»[1].

لعلَّ رسول الله ﷺ حرص على إسلام رجلٍ من عظماء المشركين؛ ليقوى الدين به، فينتشر النور ويعمّ الهدى، ويجيء ابن أمّ مكتوم الأعمى - رضي الله عنه - يبتغي الإرشاد من رسول الله ﷺ، ولكنَّ رسول الله ﷺ أعرض عنه، وأقبل على الآخر.

غير أن الأمر لم يمض على حاله، فإنّ الله - عزّ وجل - أنزلَ من فوق سبع سموات في ذلك قرآناً؛ ليوجِّه عبده ورسوله ﷺ ... نزَّله بحقٍّ رجل أعمى.

أيُّ دين هذا الذي يحبُّ المساكين والفقراء والضعفاء؛ يرفع درجاتهم في الدُّنيا قبل الآخرة؟

إنّه الدين العظيم، الذي يقدّم ذلك المسكين الأعمى على المبصر العظيم.

ولم يمض الأمر سرّاً، فيحلّ الابتسام مكان العبوس،

(١) أخرجه الترمذي «صحيح سنن الترمذي» (٢٦٥١) وغيره.

وينتهي الأمر، بل تتنزّل على رسول الله ﷺ في ذلك آيات عظيمة، يتلوها المسلمون في كل زمان، وهم في هذا يرددّون قصة ذلك الأعمى ـ رضي الله عنه ـ وما فيها من فوائد وعِظات، ودروسٍ وعِبَر.

أغنياء لم تخدعهم المظهرية:

وفي هذا المقام لا بُدَّ من ذكر دور إخواننا الأغنياء ممّن داسوا على المظهريَّات الجوفاء؛ بأقدام راسخة ثابتة، ذلك لما تضمَّه قلوبهم من يقينٍ بالله ـ تعالى ـ وإيمان به ـ سبحانه ـ.

إنهم كما قال الله ـ تعالى ـ فيهم: ﴿**رجالٌ لا تُلْهيهمْ تجارةٌ ولا بيْعٌ عن ذِكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزّكاة يخافون يوماً تتقلَّب فيه القلوب والأبصار**﴾[1].

هؤلاء قدّموا من أموالهم للفقراء والمساكين، وفي مجالات الدعوة ونشر العلم، لم تمنعهم الدنيا وزينتها، ولا المظاهر وبريقها، من احترام الفقراء والمساكين والبائسين.

هؤلاء موجودون ـ وإنْ عُدُّوا أقلّ من القليل ـ في كل

---

(١) النور: ٣٧.

عصر ومصر بإذن الله ـ تعالى ـ.

وإنّك لتحسدهم[1] على ما هم فيه من خير؛ كما قال ﷺ عنهم: «لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله القرآن، فهو يقوم به آناء[2] الليل وآناء النهار، ورجل آتاه الله مالاً، فهو يُنفقه آناء الليل وآناء النهار»[3].

إنهم يسابقون بالأموال والأعمال، لقد ذهبوا بالدرجات العلى والنعيم المقيم؛ كما في حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: جاء الفقراء إلى النّبيّ ﷺ، فقالوا: ذهب أهل الدُّثور[4] من الأموال بالدرجات العلى والنعيم المقيم: يصلُّون كما نصلِّي، ويصومون كما نصوم، ولهم فضلٌ من الأموال يحجُّون بها ويعتمرون، ويجاهدون، ويتصدَّقون.

قال: «ألا أحدِّثُكُم بأمرٍ إنْ أخذتُم به أدركْتُم من سبقَكم، ولم يدرِكْكُم أحدٌ بعدكم، وكنتم خير من أنتم

(١) المراد بالحسد هنا الغبطة، وهو تمنِّي المثل لا تمنِّي زوال النعمة.

(٢) أي: ساعات.

(٣) أخرجه البخاري: ٧٥٢٩، ومسلم: ٨١٥.

(٤) جمع دَثْر: وهو المال الكثير.

بين ظهرانَيه؛ إلا من عمل مثله: تسبّحون وتحمَدون وتكبِّرون خلف كل صلاة ثلاثاً وثلاثين».

فاختلفنا بيننا، فقال بعضنا: نسبِّح ثلاثاً وثلاثين، ونحمد ثلاثاً وثلاثين، ونكبِّر أربعاً وثلاثين.

فرجعتُ إليه، فقال: «تقول سبحان الله والحمد لله والله أكبر،حتى يكون منهنَّ كلهنّ ثلاث وثلاثون»[1].

زاد مسلم في رواية: «فرجع فقراء المهاجرين إلى رسول الله ﷺ، فقالوا: سمع إخواننا أهل الأموال بما فعلْنا ففعلوا مثله! فقال رسول الله ﷺ: ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء».

وهكذا كانت لهم يد السَّبق في الأموال والأعمال.

رفض المظاهر الإسلامية وتقديس المظاهر الخاوية:

إنّنا نشهد تناقضات غريبة، سببها تعظيم المظاهر والماديّات، وإغفال النظرة الصائبة للشريعة الإسلامية.

فممّا يُشعل نار العجب في الصدور: أنَّ الإسلام حين يأمر بالاهتمام ببعض المظاهر؛ تجد من يدعو إلى التفلُّت من

---

(١) أخرجه البخاري: ٨٤٣، ومسلم: ٥٩٥.

هذا بحجَّة الاهتمام بالباطن، وأنَّ المظهرية لا فائدة تُرجى من ورائها ـ زعموا ـ!

فإذا خاطبتهم عن اللحية ـ وهي مظهر من المظاهر ـ قالوا: ليست العِبْرة بالشَّعر، ولكنّها بالإيمان الذي يعمرُ القلوب!

وإذا قلت لهم: «ما أسفل الكعبين من الإزار ففي النار»[1]؛ قالوا: هذه قشور!

وإن دخل أحدهم مجلساً ولم يقم له بعضهم؛ اشتدَّ غيظُه، ونسي حبَّ القلوب، وطلب الاحترام الظاهر بالقيام!

وإن قيل لهم: مصافحة الأجنبية ومن يحل لهم زواجها حرام؛ قالوا: النفوس عفيفة ونقيّة!

وإن جاء الفقير الذي يُرضى عن دينه وخلقه للزَّواج من ابنتهم؛ صارت العبرة بالظاهر، واستغنوا عن نقاء الباطن، والمهم أن يكون ذا مال أو منصب أو جاه!

وإذا طُلب منهم رصُّ الصفوف وتسويتها؛ قالوا: هذه شكليات، ولكنهم عندما جاءهم من يخطب ابنتهم آمنوا بالشكليّات، عقَّدوا الأمور، وضاعفوا المهور، سوَّوا صفوفهم

(١) أخرجه البخاري: ٥٧٨٧ عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ.

في حفلاتهم ومدارسهم، ومعاهدهم ومعسكراتهم، أما في المسجد فلا؛ لأنّه من الشكليات!

خلاصة وإيضاح في المظهرية:

كيلا نخلط في هذا الأمر، لا بدَّ لنا أن نعلم أنَّ من المظاهر ما يجب فعله؛ كإعفاء اللحية، وستر العورة، وإقامة الصلاة ... وهذه وردت فيها نصوص صريحة صحيحة، وليس لنا فيها مراوحة أو ترك.

ثمّ هناك مظهرية يراوح فيها المسلم بين التنعُّم والترك؛ لئلا تطغى على باطنه، وتصبح غايته وضالّته المنشودة؛ كترجيل الشعر، والتدهن، والتوسُّع في المشرب والمطعم.

ومظهرية أخرى أعلن الإسلام عليها الحرب، وهي أن نَزِن الناس بميزان المنصب والجاه واللباس والزينة والترف.

الجمود على ظاهرية القانون وتأويل الآيات والأحاديث:

يا عُبَّاد المظهرية! إنكم تجمدون على ظاهريَّة القانون وحرفيَّته، فلا مفرَّ لكم من إمضائه وتنفيذه، على جميع الأحيان والأحوال.

كم لاقى الناس من صنوف العذاب في المعاملات والمراجعات من خلالكم! كم كانوا يقاسون ويعانون من جمودكم على ظاهرية القانون مع أنَّ في الأمر سعة لا تضرُّ بأحد من خلْق الله ـ تعالى ـ! ولكنَّكم تصرُّون على المظهرية والظاهر! أمّا آيات الله ـ تعالى ـ وأحاديث النّبيّ ﷺ؛ فما أسرع ما تؤوّلونها! وما أشدَّ اجتهادكم في تعطيلها من خلال قولكم: «الدين يسر»، «للحديث فقه»! فاتقوا الله ـ سبحانه ـ في عباده؛ فإنكم عنهم ستُسألون.

ضعف الحياء من الله ـ تعالى ـ يؤدي إلى طلب الزينة:

إنَّ ضعف الحياء من الله ـ تعالى ـ أدّى بنا إلى طلب زينة الحياة الدنيا، فإن من استحيا من الله ـ تعالى ـ حقَّ الحياء؛ ترَك زينة الحياة الدنيا.

عن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «استحيوا من الله ـ تعالى ـ حقَّ الحياء، من استحيا من الله حق الحياء؛ فليحفظ الرأس وما وعى، وليحفظ البطن وما حوى، وليذكر الموت والبلى، ومن أراد الآخرة؛ ترك زينة الحياة الدنيا، فمن فعل ذلك؛ فقد استحيا من الله حقّ

الحياء»[1].

إنَّ سعْي الناس الحثيث وراء زينة الدُّنيا؛ أنْساهم الآخرة، فقلَّ بذلك حياؤهم من الله ـ سبحانه ـ.

إنّه لا بُدّ لمن أراد الآخرة من ترك زينة الحياة الدُّنيا، وهو سبيلُ تحقيقِ الحياء الحقّ من الله ـ تعالى ـ هذا هو السبيل ولا سبيل سواه.

نظرات في مظهرية قارون:

ولنا في قصَّة قارون عبرة وعظة، إذ يقول الله ـ تعالى ـ في كتابه العظيم: ﴿ **فَخَرَجَ على قومِه في زِيْنتِه قال الذين يُريدُون الحياة الدُّنيا يا ليت لنا مثل ما أُوتيَ قارونُ إنَّهُ لَذو حَظٍّ عظيم. وقال الذين أوتوا العلمَ ويْلَكُمْ ثواب اللهِ خيْرٌ لِمنْ آمنَ وعَملَ صالحاً ولا يُلقَّاها إلا الصَّابرون فخسفنا به وبداره الأرض فما كان له من فئة ينصرونه من دون اللهِ وما كان من المنتصرين** ﴾[2].

---

(١) أخرجه أحمد والترمذي «صحيح سنن الترمذي» (٢٠٠٠) وغيرهما.

(٢) القصص: ٧٩ ـ ٨١.

فقد خرج قارون على قومه في زينةٍ عظيمة، وتجمُّلٍ باهر ساحر؛ من مراكب وملابس، ممَّا دفع أهل الدنيا وأحبابها إلى التمنِّي والتشهِّي والتحسُّر على حرمانهم؛ متمثِّلاً في قولهم: ﴿ **يا ليْتَ لنا مِثل ما أُوتِيَ قارونُ إنّه لَذُو حظٍّ عظيم** ﴾.

وحسب هؤلاء من الذمِّ قول الله ـ تعالى ـ: ﴿ **قال الذين يُريدون الحياة الدُّنيا ...** ﴾.

إنَّ حُبَّ الزِّينة، وتعلُّق القلب بها مرتبط بحب الدُّنيا، فعلى قدْر حبِّها تكون الزينة زيادةً ونقصاً، وبهذا نفهم قوله ﷺ: «من أراد الآخرة؛ ترك زينة الحياة الدنيا».

أمّا الذين أوتوا العلم؛ فلهم شأن غير هذا، فماذا كان قولهم؟... ﴿ **ويلكُم** ﴾.

كلمة عظيمة خرجت من أفواه طيبة طاهرة، فيها من التهديد والوعيد والتعنيف ما فيها لأولئك المفتونين.

ثم ماذا؟ ﴿ **ثوابُ اللهِ خيْرٌ لِمَنْ آمنَ وعَمِلَ صالحاً** ﴾.

أي: جزاء الله لعباده الصالحين في الدار الآخرة خيرٌ مما تشاهدون وتعاينون.

وهذه فائدة العلم، يُعلِّق القلب بالآخرة، ويُنقذه من زينة الدنيا الفانية.

إنَّ رؤية أولئك الزينة جعلتهم يتمنَّون مثلها، أمّا أهل العلم؛ فقد أقرَّت فطرتهم بجمال تلك الزينة، بيْد أنهم علموا أن ما في الآخرة خير مما رأوا، فنجَّاهم الله ـ تعالى ـ بعلمهم النافع،وقاموا بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ولمَن هذا الثواب؟ لمن آمن وعمل صالحاً، وتوَّج أعماله بالصبر.

إنها دعوةٌ للإيمان والعمل الصالح والصبر، وهي تُفهِم أيضاً أن تمنِّي الزينة ينافي ذلك كلَّه.

ثمّ يقول ـ سبحانه ـ في حقِّ قارون: ﴿**فَخَسَفْنا به وبداره الأرضَ فَما كان له من فِئَةٍ ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين**﴾.

يُبيّن الله ـ تعالى ـ كيف كانت عاقبة قارون وزينته التي صدَّت عن سبيل الله كثيراً، فقد خسف الله ـ سبحانه ـ به وبداره الأرض، ولم يجدْ من ينصره أو ينفعه أو يُنقذه، وكانت عاقبته الخذلان والهلاك ـ عياذاً بالله تعالى ـ.

وهذه تذكِّرنا بسنّة الله في دول الدُّنيا؛ فإنّها تبدأ قويّة الشوكة، ثمّ إذا أخذت تغلو في الزينة والترف؛ كانت مطمع الطامعين، وموئل الغزاة المحتلِّين، وكانت نهايتها بداية دولة أخرى؛ تبدأ بالجدّ والحزم والمثابرة، فتعمّر زمناً على هذا، ثمّ تتبع سابقتها في الزينة والترف واللهو، فتبدأ نهايتها لبداية دولة أخرى ... وهكذا.

هذا في الدُّنيا، أمّا في الآخرة؛ فلا تسلْ عن العذاب والخزي والخُسران، فاعتبروا يا أولي الأبصار.

ثمّ يقول ـ سبحانه ـ في حقِّ من تمنَّى مثل ما أوتي قارون: **﴿وأصبح الذين تمنَّوا مكانه بالأمس يقولون ويكأنَّ[1] الله يبسُطُ الرزق لمَنْ يشاء من عباده ويقْدر لولا أنْ منَّ الله علينا لَخَسَفَ بِنا ويْكأنَّه لا يفلح الكافرون﴾**[2].

يُبيّن الله ـ سبحانه وتعالى ـ حال الذين تمنّوا مكان

(١) قيل: معناها: «ويلك اعلم أن»، ولكن خفف فقيل: «وَيْك». وقيل: معناها: «ويكان»؛ أي: ألم تر أنّ؟ وقيل أيضاً: «وي كأنّ»، ففصلها وجعل حَرف «ويْ» للتعجب أو للتنبيه؛ و (كأنّ) بمعنى: «أظنُّ وأحسب». عن «تفسير ابن كثير».

(٢) القصص: ٨٢.

قارون؛ بعد أن عاينوا ما حلَّ به.

لقد علموا أن المال والزينة لا يدلان على رضى الله ـ سبحانه ـ عن صاحبهما، فإن الله ـ تبارك وتعالى ـ يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر، وهذه مأساة أهل الدُّنيا ومحبيها، يظنُّون أنَّ من أوتي الزينة؛ فقد حاز السعادة بحذافيرها، وأنَّ الله ـ تعالى ـ سيديم عليه العطاء والرضوان.

ثمّ ماذا كان قولهم؟ ﴿ **لولا أنْ مَنَّ الله علينا لخَسفَ بنا** ﴾.

فلولا لُطفُ الله ـ تعالى ـ لَخَسَف بنا كما خسف به، بسبب ما اجترَحْنا من خطيئة التمنِّي، وقد أنقَذَنا ـ سبحانه ـ بعدم إعطائنا مثل زينته، وعرَّفنا على حقيقة أمره، ونهاية حاله.

ثمّ كان ختام قولهم: ﴿ **ويكأنَّه لا يُفلحُ الكافرون** ﴾.

أيقنوا أنّ تلك الزينة الخاوية لا تؤدِّي إلى الفلاح، لا في الدُّنيا ولا في الآخرة، كما أنها نابعة من الكفر، صادرة من الإلحاد، ذلك لأن دينَ الكفار دنياهم، ودنياهم دينهم، فلا هَمَّ لهم إلا الزينة والعلوُّ والمتعة والتلذُّذ على أيِّ وجه من الوجوه.

ثمّ يقول ـ سبحانه ـ: ﴿تِلْكَ الدارُ الآخرةُ نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمُتقينَ﴾[1].

إنَّ الدار الآخرة ونعيمها المقيم؛ من حظِّ من لا يريد علواً في الأرض ولا فساداً.

كم من الناس يريدون العلوَّ بالزينة والترف والإسراف؟ إنّهم يسعون للعلوِّ في زينة الطعام أو الشراب أو الركوب أو الملابس أو الحفلات، وإنَّ قارون كان ممّن يسعون للعلو في الزينة، حتى تمنَّى مكانه من تمنَّى.

نماذج من المظهريات

المظهرية في الأفراح:

لقد عظُمت الشَّكليات في أمور الأفراح، حتى إنها آذَت من يريد أن يُعِفَّ نفسه، وأغلقت سبيل الزواج على كثير من الشباب، وأقْصتْ تفكيرهم عن ذلك؛ لما فيه من التكاليف غير المستطاعة.

ويتمَّثل ذلك في المعجَّل، والمؤجّل، والأثاث المطلوب،

(١) القصص: ٨٣.

وحفل الزّفاف، وبلَغَ الأمرُ غايته في التّباهي، حتى قالوا: إنّ مهْر ابنة فلان كذا وكذا.

وإن كان هنالك من بقيّة خير في أُناس، لم تطمئن نفوسهم للتغالي في المهور، وطلبوا أقلَّ مما يطلب الناس، لكنّهم قالوا: قولوا أمام الناس: إنَّ مهر ابنتنا كذا وكذا.

ومن المؤلم المُبكي أن تكلّف الإنارة والإضاءة في الأفراح، في بعض البلاد، مبالغ طائلة، تُطعِم الآف الجوعى، فلا حول ولا قوة إلا بالله ـ تعالى ـ.

وأمّا عن الطعام الذي يكبُّ فلا تسأل؛ كأكوام الأرز، واللحوم، وأصناف الشراب، وغير ذلك.

وابتُلِيَ بهذا الكثير الكثير، ممّن عُدُّوا من الملتزمين، وتعذَّروا بأعذار واهية؛ منها: أنّهم لا يستطيعون حيلةً مع أهليهم ومجتمعهم، ففشا المنكر ولم يُنكَر.

وربّما استدان المرء مالاً لهذا، ولعلّه في غير هذه المناسبة لا يجرؤ أن يدعو إلى الطعام شخصاً واحداً؛ لصعوبة حاله، وقلّة ماله.

فكيف به والمجتمع يريد أن يفرض عليه دعوة العشرات

أو المئات ممّن لا همَّ لهم إلا البحث عن الشهوات ولو على حساب الناس؟

كيف به وهو ينظر إلى أكوام الطَّعام تُرمى وقلبه يغلي حسرة على ما رَكبه من دَيْن! كيف به وفكره يتقلّى بالهموم، وهو يسأل نفسه: كيف ومتى أسد هذا الدَّين؟

فاتَّقوا الله أيها المسلمون! فكم من أفواه تُسدُّ جوعتها بالأطعمة المهدورة؟

وكم من حاجات تُقضى بهذه الأموال المسفوكة؟

المظهرية في المآتم[1]:

فإذا أصاب أحدهم الموت؛ تضاعفت المصائب، وتعاظمت المتاعب، وتنازع الناس لدعوة أهل الميّت مع جموع كثيرة كثيرة؛ ليسجّل ديناً في رقاب الفقراء، فتُصنع كمّيّات هائلة من الطعام، وربّما تقصّد بعض صغار العقول،

---

(١) هناك رسالة قيمة نافعة بعنوان: «منكرات المآتم والموالد»، فارجع إليها إن شئت، وهي رسالة أصدرتها وزارة الأوقاف المصرية، بقلم طائفة من علماء الأزهر، حقّقها وقدَّم لها وعلّق عليها الشيخ محمود مهدي استانبولي ـ رحمه الله تعالى ـ.

شراء اللحوم المجمّدة المستوردة؛ المحرَّمة أو المشبوهة منها ـ نظراً لانخفاض ثمنها ـ ثمّ شراء الرؤوس لتصديرها فوق الطعام حتى تُحْسب ذبائح!

ثمّ يُؤكل ما يُؤكل، ويُلقى ما يُلقى، غير مأسوف عليه؛ إلا من تكلّف عليه من الفقراء، أو استدان إلى أجل غير مسمّى!

وهل تنحصر الدّعوة للطّعام على أهل الميت فحسب؟ لا، ولكن معهم أعداد كبيرة.

وتنقلب دار أهل الميّت في بعض البلاد الإسلامية إلى فندق ومطعم، كما يستنفر ذوو الميت؛ لخدمة الناس وتأمين طلباتهم وقضاء حاجاتهم.

فأين ذهبنا بحديث رسول الله ﷺ: «اصنعوا لآل جعفر طعاماً؛ فإنّه قد أتاهم ما يَشْغَلُهم»[1]؟!

ولقد صدق من قال:

---

(١) أخرجه أحمد وأبو داود «صحيح سنن أبي داود» (٢٦٨٦) والترمذي «صحيح سنن الترمذي» (٧٩٦)، وانظر «أحكام الجنائز» (ص٢١١).

ثلاثة تَشْقى بهنَّ الدار العُرسُ والمأتَمُ ثمَّ الزَّارُ[1]

وهناك مظهريات قبل الوفاة وبعدها، وعند غَسْل الميت، وعند التكفين والخروج بالجنازة، وعند الدفن والتعزية، وزيارة القبور[2]، وأقتصر من مظهريات المآتم الكثيرة على كلماتٍ تتعلّق بالتعزية[3]:

وذلك في أمرين:

أولاً: عند القبور: وهذا مما يُبكي القلوب ويُدْمِيها؛ فأنت ترى أبناء المتوفّى وأحبابه؛ يتركون فقيدهم الغالي في أشد حاجته إليهم، ليتسأنس بهم وينتفع بدعائهم؛ تراهم يتركونه ليصطفّوا لاستقبال المُعزّين!

---

(١) حفلة راقصة تُقام لطرد الأرواح الخبيثة التي تمسُّ بعض الأجسام! وأشير في «المعجم الوسيط» إلى أنها كلمة عاميَّة.

(٢) وقد فصّل شيخنا ـ رحمه الله ـ القول فيها في كتابه القيّم «أحكام الجنائز» تحت عنوان (بدع الجنائز).

(٣) عن جرير بن عبدالله البَجلي ـ رضي الله عنه ـ قال: «كنا نرى الاجتماع إلى أهل الميت وصنيعة الطعام بعد دفنه من النياحة». أخرجه أحمد وابن ماجه، وصححه شيخنا ـ رحمه الله ـ في «أحكام الجنائز» (ص٢١٠).

ثانياً: تخصيص مكان للتعزية والاجتماع فيه.

وليت شعري! ما الذي يفعله المجتمعون للعزاء؟! تدخين وكلام في أمور الدُّنيا، وقلَّما تسمع ـ مع الأسف ـ كلمة نافعة تقرِّب إلى الله ـ عزّ وجلّ ـ أو تذكِّر به ـ سبحانه ـ.

إنه لقاء كأيِّ لقاء؛ أسعار الفاكهة، أو الخضار، أو الغلاء، أو أمور التجارة، أو البيع أوالشراء.

وغالباً ما يدور هذا ـ وأعظم منه ـ وأشرطة تسجيل القرآن تعلو بالتلاوة، غير مبالين أو مكترثين.

وإذا جئت تنكر عليهم مبدأ الاجتماع للتعزية؛ اشمأزَّت قلوب الذين لا يحبُّون السنة!

ولا أدري ما الذي يستفيده المصاب من حضور هؤلاء، وما الذي يأتيه منهم إلا التعب والنصب، أفلا يكفيه ما يشغله؟!

المظهرية في الزيارات والدّعوات:

ومن مظاهر الاستقبال واللقاء، والانصراف والوداع، تقبيل الرجال بعضهم البعض، وكذا النساء، وتراهم يفعلون هذا وقلوبهم قد مُلئت جفاء[1]، وقد غاب عن معرفتهم أو

(١) لا أقول هذا رجْماً بالغيب، ولكني أقوله ممَّا أراه من الأثرة =

قلوبهم؛ نهى رسول الله ﷺ عن ذلك؛ كما في حديث أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: «قال رجل: يا رسول الله! الرجل منَّا يلقى أخاه أو صديقه؛ أينحني له؟ قال: لا ... قال: فيأخذ بيده ويصافحه؟ قال: نعم»[1].

ليت شعري! هل يريد هؤلاء أن يُحقّقوا المحبَّة والألفة بمخالفة هدي رسول الله ﷺ! وأنَّى لهم ذلك!

فها نحن نرى البغضاء والكراهية والحسد والحقد تدبُّ في نفوس هؤلاء؛ إنهم يريدون أن يُطمئنوا أنفسهم بأداء الواجب نحو أصحابهم وأقاربهم بالتقبيل والعناق؛ متعامين عن السبيل القويم في أداء الواجب؛ بالصلة، والتزاور، والعفو، والصفح، والإيثار، والتناصح، وبذل المال.

وفي الزيارة؛ أوجب المجتمع الهدية على الزائر، حتى إن بعض الفقراء، حُرموا زيارة أقاربهم؛ تحرُّجاً من هذا الأمر.

= والبخل وعدم إعانة المحتاجين من أقاربهم وإخوانهم، أضف إلى ذلك ما يبدو منهم من غيبة وقدح في الظهور لمن يعانقونه بالصُّدور.

(١) أخرجه الترمذي وابن ماجه وغيرهما، وخرّجه شيخنا ـ رحمه الله ـ في «الصحيحة» (١٦٠).

وتتمثل مظهريَّة الدعوات؛ في تعدُّد أصناف الطعام وأشكاله، حتى كأنه أصبح من العيب الاقتصار على النّوع الواحد منه، وطغى الإسراف على هذا الأمر، وفشا هذا الحال، حتى في أهل المساجد والدعاة، ومن هم في مقام القدوة، وأُلقي في أماكن القمامة كميات وكميات من الطعام، تبكيها أفواهٌ محرومة وبطون خاوية.

ولما كان أمر الدعوة للطعام كما قلتُ؛ لم يتجرأ الكثير الكثير على دعوة إخوانهم وأحبابهم؛ لما يلحقهم من تكاليف مادية، أضف إليها معاناة الزوجة من إعداد هذه الأصناف، وما يتبعه من مشقَّة في تنظيف الصحون والأواني الكثيرة.

وقد يتردّد عدد من الكرماء اليوم في دعوة من يدعوهم، فكيف بمن دونهم؟ ذلك أمر لا يرِد في قاموسهم أبداً! إلا لمناسبة فرضَها عليهم المجتمع، يخشون فيها الافتضاح، أو أن يقال عنهم: بخلاء!

لعلّك تستطيع أن تعدَّ الدّعوات التي تُدعى إليها في العام، بل وربَّما في العمر.

كيف هذا ورسول الله ﷺ يقول: «خياركم من أطعم الطعام»[1]؟!

المظهرية في الدوائر والمؤسسات والشركات:

ومن المظهريات التي انتشرت انتشار النّار في الهشيم؛ مظهريات الدوائر والمؤسسات والشركات في أقطار الأرض، فترى الجمود الشديد على حرفية القانون[2] دون تفهُّم أو تبصُّر، هؤلاء المتشدِّدون أنفسهم يؤوِّلون ـ على هواهم ـ نصوص الشريعة، ويحاربون الجمود على النص، ويقاتلون ظاهرية الأدلَّة، ويقولون دائماً: «إنَّ مراد الشريعة التيسير»!

المظهرية في التجارة:

واستفحلت المظهرية في التجارة، فرفعت زركشة بعض الأشياء الأسعار، وراجت بعض الأصناف في السوق،

---

(١) أخرجه أحمد وابن سعد والحاكم وغيرهم، وهو قويّ بعدد من الطُّرُق ذكرها شيخنا ـ رحمه الله ـ في «الصحيحة» (٤٤).

(٢) مضت إشارة لطيفة بهذا بعنوان: «الجمود على ظاهرية القانون، وتأويل الآيات والأحاديث».

فاستغلَّ بعضهم ترويج بضاعته؛ بجعل المظهر الخارجي لها شبيهاً لتلك الأصناف، بحيث يُشكِل على المشتري التمييز بين الصنفين، ومن قدِر على ذلك؛ فقد وقع في نفسه أن البضاعتين سواء في الجودة والحُسن.

وهناك صنف ممّن لا خلاق لهم، نظروا في الكتب ـ ولا سيما الإسلامية منها ـ نظرة تجارية، فقاموا بتغييرات طفيفة، وغيَّروا العنوان أو الغلاف، وكتبوا أسماءهم عليها[1].

ومثلهم بعض الناشرين، قاموا باختيار العنوان الجذّاب والغلاف البرَّاق، ولو خلا الكتاب من العلم والفائدة، وربما ادّعوا ـ كذباً وزوراً ـ أنها من تحقيق بعض المشاهير من المؤلفين أو المحققين.

وكثرت المظهريات في تجارة اللحوم، ولمّا رأى تجّارها

---

(١) ومن ذلك الصنف شخصٌ يُدعى علي الطهطاوي، من مصر، قام بسرقة كتابي «القبر عذابه ونعيمه»، وكتَب عليه اسمه، وكان في الطبعة الأولى قليل الخبرة بالمظاهر والشكليات، ولكنّه أجاد بعد الطبعة الأولى، فسمّى الكتاب: «أهوال القبور وما بعد الموت»، وسرق فيه كتابي، وأضاف له إضافات لا إخالها إلا مسروقة من كتب أخرى، والله أعلم.

تحرُّج عدد من الناس؛ مِنْ أكل ما لم يذبح الذبح الشرعي منها، لجؤوا إلى طريقة خبيثة، وهي استخدام عبارة: «لحم حلال»، أو «ذبح على الطريقة الشرعية».

وحكى لي أحد الأصحاب عن وصول سيارة كبيرة محمّلة باللحوم إلى بلد إسلامي، فأُعيدت السيارة إلى البلد المصدِّر، حرصاً على استيراد اللحوم المشروعة، فلمّا أنْ بلغَ ذلك التاجر الماكر قال: «لقد فاتنا أن نتصرف» !فوضع الملصقات على نفس البضاعة، وكتب عليها: «ذُبحت على الطريقة الإسلامية»! ثمّ أُدخلت اللحوم نفسها إلى تلك البلاد.

وأراد أحدهم أن يتوثّق من شركة توزّع اللحوم بأسعار مخفضة، فاتصل بالشركة، وقال: «نريد إجراء مقابلة صحفيَّة وتصوير تلفازي لعملية الذبح»، فما كان جوابهم إلا أن قالوا: «لا داعي لقدومكم؛ فإننا نستورد هذه اللحوم، ونقوم بتعليبها وتغليفها، ثمّ نكتب عليها: حلال»!!

المظهرية في المدارس:

وأمّا المظهرية الخاوية في المدارس؛ فحدّث عنها ولا حرج، ففي الإذاعة المدرسية لحن في قراءة القرآن الكريم

والأحاديث الشريفة، فضلاً عن كلام البشر، ثمّ تعقبها برامج لا يُعرف أولها من آخرها، ولا آخرها من أولها، والمهم هو الاستمرار في الإذاعة المدرسية[1].

والمنهاج المقرَّر المطوَّل في بعض المواد كالأسد المفترس يطارد المدرِّس، فلا همَّ لهذا المطارَد البائس إلا أن يُنقذ نفسه من هذه المسؤولية، وبذلك تفوته التربية والإفادة، هذا عند مدرِّسي التربية الإسلامية واللغة العربية؛ فضلاً عن غيرهم.

وأمّا مطيّة الكثير من العاجزين والجاهلين والمنافقين - وبئست المطيّة - أن يُردِّدوا كلمة (العملية التربوية)، فإذا أرادوا أن ينفذوا إلى مأرب من المآرب، أو مقصد من المقاصد؛ قالوا: «العملية التربوية تقتضي كذا وكذا..».

وفي الوسائل التعليمية[2]؛ يعصرك الألم وأنت ترى

---

(١) وأنا أدعو لاستثمارها الاستثمار السليم، وتوظيفها التوظيف الصحيح، فكلمات يسيرة قليلة تنفع وتجدي، وتصحِّح المسار والسلوك، خير من جعجعة لا يعْقبها طِحن.

(٢) لا يعني هذا إنكار الوسيلة التعليمية واستخدام ملصقات الحائط النافعة على إطلاقها؛ فإن لها وظائف طيّبة تخدم المادة، وتُذلِّل الصعب بإذن الله - سبحانه - ضمن أوقات وأمكنة وشروط محدَّدة.

المدرسة تغصُّ بها، وفيها ما فيها من الأخطاء النّحويَّة، وقد تُكُلِّف عليها، ودُفِع فيها مبالغ ومبالغ، تراها وكأنك لا تراها.

إنها وسيلة ناجحة لتزيين المدرسة، أما الثمرة المرادة والعلم والفائدة؛ فلا منزلة لها ولا مكانة في هذا الموضع!

ما الذي تدعو إليه هذه الملصقات والوسائل؟ ذلك أمر لا يعرفه الراعي ولا الرعيَّة!

فرحات غامرة تخالج من يشرفون على المدارس حين يأتي الزائرون والمسؤولون وهم يرون الوسائل والملصقات المزركشة المزخرفة، بالإضافة إلى حفل صغير من كلمات لبعض المجدّين وأصناف من الطعام والحلوى تختتم بها الزيارة؛ تعطي انطباعات النجاح، والتفوق والتقدّم، وقد خفي عنهم ما خفي.

كذا فلْيَجِلَّ الخَطْبُ ولْيَفْدَح الأمرُ

فليس لعينٍ لم يَفِضْ ماؤها عُذْرُ

ومما يدمي القلوب، أن تُعقد ندوات ومحاضرات لمدرِّسي اللغة العربية؛ في بعض البلاد الإسلامية، فتسمع ممّن يُشرف عليها ما لا ينبغي أن تسمع؛ من التكلُّم بغير فصيح

القـول، واللجـوء إلى تسكين مـا حـقّـه التـحـريك؛ إلا مـا قلَّ وندر.

فـأين الثـمـرة من دراسـة وتدريس اللغـة العـربيـة؟ وأين الأهداف التربوية المزعومة؟ لا يكاد العاقل يُصدِّق هذا!

أمـا عن دفـتـر التـحـضـيـر[1]؛ فـالكلام فـيـه يطول، لـكـن ينبغي أن تكون هناك دراسة جادّة للتخلّص من مظهرية هذا الدفتر، والإفادة مما يلزم.

نصيحة للموجّهين:

وأودُّ أن أنصح الإخـوة الموجّـهين بـالإقـبـال والمثـابرة على العلم النافع، بحيث يشعر المدرّس أنه أمام عـالـم، يتلقّى منه ويستفيد؛ كـالطالب؛ مهـما جدَّ واجتهد فإنه يشعر أنه دون أُستاذه علماً وفهماً ومعرفة.

أريد من الأ خ الموجِّـه ألا تـكون سلطتـه على المدرّس من قِبَل مهنته ومسؤوليته، بل بغزارة العلم، وسعة المعرفة، وكثرة الاطلاع، وهـذا مـا نـفـتـقـده مع بالغ الأسف، ومن هنا تنشـأ

(١) لا أنكر بأيِّ حال التحضير العلمي والإعداد الذهني المُجدي ـ وليس لي ولا لغيري ذلك ـ فهذا من الأمور التي لا يتمُّ النفع إلا بها.

التحفُّظات والخصومات بين المدرّس والموجِّه؛ لأن المدرّس يشعر أنه أمام شخص مثله، وربما دونه، علماً وتجربة، غير أنّه حُكِم له بسبب الوظيفة.

إنَّ تدوين ملاحظات عن شخص يُلقي درساً، أمر غير عسير يستطيعه أي مدرس.

إنَّ الشعور ليُراوِد المدرّسين أنَّ ما يُكتب من التوجيهات أمور شكلية يدوّنها الموجهون، يريدون بذلك ملء سطور يثبتون فيها أنّهم قاموا بالواجب.

ولعلّ الأمر الذي يُعْذِرُ به الموجّهون أنفسهم، أنّهم يريدون الحفاظ على الوظيفة التي يُسِّرت لهم؛ في وقت يبحث الناس فيه عن مثلها أو دونها فلا يجدون.

إن ألسنة البعض منهم لتكاد تنطق بهذا، فيقولون للمدرّسين: «ذرونا نتعامل بأمان وإياكم، نكتب ونوجّه وننتقد وننفّذ ما جاء من تعليمات؛ ولو كنّا غير مقتنعين بها».

وهذا لا يعني أنَّ الإخوة المدرّسين مبرؤون ـ ولم أنصِّب نفسي للنقد والمقارنة والتقويم ـ ولا أبخسهم حقهم، فمنهم

من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله ـ تعالى ـ ومنهم من لا يُحسن أداء عمله إلا ما دُمْتَ عليه قائماً، ومنهم من يترك الأثر السيىء في نفوس الطلاب؛ لسوء سلوكه وألفاظه وأفعاله.

إنني لا أكتب لأنتصر لفريق دون آخر، أو لمهنة دون أخرى ... إن الأمر لأشد من ذلك ... إن المرمى لأسمى وأعلى.

إن الأمر يمسُّ مصلحة الأمة على مر الأيام والأزمان ... إنه يتعلّق بتربية الأجيال ... وإنها لمسؤولية عظيمة سنُسأل عنها بين يدي الله ـ تعالى ـ.

فلنحاسب أنفسنا قبل أن نُحاسَب، ولنسأل أنفسنا:

ما الفساد الذي أصلحناه؟

ما الأخطاء التي صوبناها؟

ما الذي قدّمناه وأفَدْنا به؟

هل لغيابنا خطر على سلوك وتربية وتعلّم الطلاب؟ أم أنّ وجودنا وغيابنا سواء؟!

المظهرية في حب النّبيّ ﷺ :

وممّا ابتليت به أمّتنا ادّعاء حبِّ النّبيّ ﷺ، والتعبير عنه بأساليب لم تَرِد في دين الله ـ تعالى ـ:

منها مسْح الرأس والوجه وما تيسّر من الجسد؛ عندما يُذكَر رسول الله ﷺ! وقد تجد فاعل ذلك يتعامل بالربا، وربّما تخرج زوجته أو ابنته بلباس فاضح!

ومنها معاداة كثير من الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ إخلاصاً لحبِّ النّبيّ ﷺ وأهل البيت!! ادّعاءً وافتراءً أن الصحابة قد كفروا بالله ـ تعالى ـ إلا ثلاثةً منهم.

ومنها الصلاة على النّبيّ ﷺ في مواطن وأماكن مخصَّصة لم يأمرنا فيها النّبيّ ﷺ بذلك، ولم يفعلها أحدٌ من أصحابه ـ رضي الله عنهم ـ.

وإنّما حبُّ الله ـ تعالى ـ بطاعته واتِّباع رسوله ﷺ، وحبُّ النّبيّ ﷺ باتباع أوامره واجتناب نواهيه.

قال ـ تعالى ـ: ﴿قُلْ إِنْ كُنتم تُحبونَ اللهَ فاتبعوني يُحْبِبكُمُ اللهُ ويغفر لكم ذنوبكم والله غفورٌ رحيم﴾[1].

(١) آل عمران: ٣١.

ولهذا الأمر العظيم أضرب مثلين توضيحاً وتبييناً:

رجل اشتدَّ به المرض، فأخرج الوصية لابنه الكبير؛ يوصيه بها؛ أن يعتني بأمّه، ويترفّق بإخوانه الصغار، ويتّقي الله ـ تعالى ـ بما تركه من مال.

مات الأب، واغرورقت عينا ولده بالدموع، ورثى لحاله الحاضرون، ثمّ جاء للوصيّة، فقبّلها، وتمسّح بها وتبرّك! وذهب بها إلى خطّاط لم يُرَ له مثيل، فخطّط كل حرف بلون، ودفع على الوصية وتكلّف؛ لتخرج بألوان جذّابة برّاقة تسرُّ الناظرين، ثمّ ذهب بها إلى مُتَفنّن في الأضواء، قد بذَّ نظراءه وأقرانه في الإبداع، فجعل الحروف تضيء وتبرق وتنير، وهي بذلك تسحر العيون، وتسلب الألباب، ثمّ وضعها في صدر المجلس؛ يقبِّلها صباحاً ومساء، ويبكي عندها فقد أبيه.

يسمع الابن أنين أمه العجوز خافتاً، فلا يلّبي ولا يلتفت، ويأتي لإخوانه الصغار، فيوسعهم ضرباً، ويشبعهم شقاء وعناء، وأما عن الأموال التي اؤتمن عليها؛ فقد بسط يده كل البسط في كل حرام ومشبوه.

وولدٌ آخر أقبل على الوصية دون تقبيل، ومن غير زخرفة ولا تزيين، يلبي أمر أمه، ويخدمها حقَّ الخدمة، يفرح لفرحها ويبكي لبكائها، يعتني بإخوانه، ويتابع أمورهم، ويتلطّف بهم ويترفّق.

وأما في المال الموروث؛ فكان يعتدل في الإنفاق، ويجعل ذلك في وجوه الخير والبرّ فيما يُرضي الله ـ تعالى ـ.

... فأيُّ الولدين أبر بأبيه؟!

أذلك الذي كان يقبّل الوصيّة، أم ذلك الذي تركها على حالها؟!

أذلك الذي أمضى ما في الوصية؛ وعمل بمقتضاها، أم ذلك الذي خالف الوصيّة؟

وماذا تُغني الزينة والزخرفة والتقبيل؛ إذا لم يكن للعمل والتنفيذ وجود؟!

تدبّروا القول أيها الناس، ولا تغرَّنكم الزخرفة ولا تخدعنّكم المظهريات ولا الشكليات.

المظهرية في الفتاوى:

ومن أشدّ ما تعانيه الأمّة؛ أولئك الذين يتصدَّرون

للفتاوى والإمامة والخطابة والإرشاد، وليسوا لهذا بأهل، فلبسوا الملابس الخاصة؛ تلك التي توهم أنَّ مرتديها من العلماء، ولمّا كانوا يعانون من ضيق الوقت بحُكم العمل أو الوظيفة، أو من ضعف القدرة على إدامة النظر في الكتب، أو من ضعف الفهم، أضِف إلى هذا خجلهم أن يقولوا لما لا يعلمون: لا أعلم؛ وجدوا أنفسهم ينصاعون لتلبيس الشيطان، فأفتوا بلا علم، واعتمدوا آراءهم المجرّدة، فأصبح يفتي كل ذي لحية أو عمامة!!

ولعل أشدّ ما يؤذي هؤلاء المتشبِّعين بما لم يُعطوا والمتحلّين بما لم يؤتوا: أن يسألوا عن الدليل والبرهان والنصّ، وعندئذ لا يجدون لهم من سبيل؛ إلا أن يرموا السائلين بالتعصُّب والتنطع، فناصبوا أهل العلم الصادقين العداء، ووصفوهم بالتشدّد والمخالفة والإتيان بالغرائب والعجائب، ذلك لأنهم لم يطّلعوا على ما اطّلعوا عليه، ولم يتعرّفوا إلى ما تعرّفوا إليه.

وإذا ما تحرَّكت بذرة الخير في قلوب أصحاب الأهواء، وشعروا بالحرج من الفتاوى؛ رفع الشيطان لهم راية «الدين يسر»، فزال الحرج من النفوس، وانهمرت الفتاوى كالمطر!

فإذا علمْت هذا ـ يرحمك الله ـ لم ترَ عجباً أن يتخرّج الشخص من كليّة الشريعة؛ وهو لا يُحسن أحكام الترتيل، وقد يحمل شهادة «الماجستير» و «الدكتوراه» وتراه ينقُل الأحاديث الضعيفة والموضوعة؛ لأنّه لا يميّز بين الصحيح والسقيم منها.

ومن الشيء العجاب؛ أن يقول أحدهم في خطبته: «روى ابن الجوزي في الموضوعات»، ويبني على قوله أفكاراً ومعاني وسلوكاً؛ ظنّاً منه أنّ كتاب «الموضوعات» مصدر من المصادر الصحيحة، أو مرجع من المراجع الثابتة؛ كقول القائل: «روى البخاري في صحيحه»، فلا حول ولا قوة إلا بالله ـ تعالى ـ.

وإذا قلت لهم: هذا حديث ضعيف، أو موضوع؛ قالوا: أأنت أعلم أم ابن كثير؟ وفاتهم أنّ الحافظ ابن كثير ـ رحمه الله ـ قد ضعَّف الرواية، ولكنّهم قرؤوا المتن ولم يقرؤوا ما يعقبه من الإسناد، وظنّوا أنّ مجردّ الإتيان بالسَّند يعني التصحيح.

ورأى هؤلاء أنّهم ليسوا بأهلٍ لدراسة علم الحديث

ومصطلحه، وشقَّ عليهم فهمه واستيعابه، فاكتفوا بتصحيح كل ما وافق عقولهم، وشنّوا الحرب على أهل هذا العلم الشريف، واتّهموهم بأنّهم محدِّثون لا فقهاء!

وإذا قيل لهم: «هذا حديث ضعيف»؛ قالوا: «يجوز رواية الأحاديث الضعيفة في فضائل الأعمال والعمل بها»! ولكن؛ هل عرف هؤلاء الشروط والقيود لهذا التجويز؟ أم أنهم يعرفون ما يوافق هواهم ويستر حالهم؟

فإذا جاز ذِكْر الأحاديث الضعيفة؛ فهل جاز ذكر الأحاديث الموضوعة والمكذوبة؟ وهل بلغْتُم من العلم ما تميّزون به بين الضعيف والموضوع؟

أم بلغتُم من الفقه ما تفرِّقون به بين ما وافق القواعد الشرعية الصحيحة ممّا لم يوافقها، وهل يندرج تحت أصلٍ ثابت من الدين أم لا يندرج؟

هل عرف هؤلاء ـ أصلاً ـ أن هذا ضعيف أو موضوع؟ إنهم لا يعرفون ذلك، ولكنّهم يذكرون النصَّ معتقدين ثبوته، فإن جئت تبيِّن لهم ضعْف الحديث قالوا: «يجوز العمل بضعيف الحديث»!

والنتيجة المحتّمة لقولهم هذا، تفضي بهم إلى تجويز رواية أي شيء يُنسب إلى النّبيّ ﷺ؛ وتجويز تأليف الأحاديث كذلك، طالما يُراد بذلك الخير فإلى الله ـ تعالى ـ المشتكى.

ولجأ الكثير الكثير إلى أسلوب القصص والحكايات، والتوسُّع في الأمثال؛ ليغطّي قلة العلم والمعرفة والاطلاع.

ورأى هؤلاء الخطابة والوعظ والتدريس أمراً هيناً سهلاً، فهم مستعدّون لمخاطبة الناس في أيّ وقت من الأوقات، لا يفتقرون لإعدادٍ أو تحضير، معلوماتهم لا تزيد ولا تنمو؛ يغطُّون على هذا الأمر كله برفع الصوت وتحريك العواطف، حتى بلغ الأمر بأحدهم أن قال: «الخطابة لُعبتي»، فلا حول ولا قوة إلا بالله.

وأودُّ بهذه المناسبة؛ أن أُذكِّر هؤلاء بأمر عساه يغيِّر ما بهم من حال، وذلك عندما جاء بعض الناس لربيعة الرأي وهو من شيوخ الإمام مالك ـ رحمهما الله تعالى ـ يطلبون منه أن يترفّق بنفسه ويتلطّف بحاله، حين رأوا شدّة إقباله على العلم، فقال: «سمعت بعض أشياخنا يقولون: «إنّ العلم لا يُعطيك بعضه؛ إلا إذا أعطيته نفسك كلّها».

فهيَّا أيها الخطباء! خاطبوا أنفسكم بهذه الكلمات قبل كل شيء، وهيّا معشر الوعّاظ! عِظوا أنفسكم بهذه العبارة الناجحة النافعة، وهيّا أصحاب الفتاوى! أفتوا أنفسكم بهذه المقولة الطيبة قبل أن تُفتوا الناس، فهذا هو سبيل السداد والهدى والرشاد بإذن الله ـ تعالى ـ.

علاقة المظهرية بالتحايل:

ولا تنس أخي المسلم ـ هداني الله وإيّاك ـ أنّ التّحايل الذي يُفضي إلى تحريم الحلال وتحليل الحرام يعتمد على المظهريات، ويرتكز على الشكليات.

من ذلك حيلة اليهود في صيد السمك، فقد حرّم الله ـ تعالى ـ عليهم صيد السمك يوم السبت، وابتلاهم الله ـ تعالى ـ بتوافره ذلك اليوم وانعدامه في غيره، وفي هذا يقول الله ـ تعالى ـ: ﴿ **واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر إذْ يعْدونَ في السّبْت إذْ تأتيهم حِيتانهم يوم سَبْتِهم شُرّعاً ويوم لا يسبتُون لا تأْتِيهم كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون** ﴾[1].

---

(١) الأعراف: ١٦٢.

فقالوا: إنّما حرّم الله علينا الصيد يوم السبت، ولم يحرّم علينا احتجاز السمك فيه، وكذلك فعلوا، واصطادوها في غير ذلك اليوم بزعمهم! فاستحقّوا لعنة الله ـ تعالى ـ لتحايلهم ومكرهم وخبثهم.

وحرّم الله ـ تعالى ـ على اليهود ـ بظلمهم ـ الشحوم، فأذابوها وباعوها وأكلوا ثمنها؛ فقد قال الله ـ سبحانه وتعالى ـ في حقّهم: ﴿**فبِظُلْمٍ من الذين هادوا حرَّمْنا عليهم طيّبات أُحلَّتْ لهم وبصدهم عن سبيل الله كثيراً وأخْذهم الرِّبا وقد نُهوا عنه وأكلهم أموال الناس بالباطل وأعتدنا للكافرين منهم عذاباً أليماً**﴾[1].

وتمثل التحايل في الإذابة والبيع، وهما شكليّتان، فالإذابة غيَّرت الشكل، والبيع عندهم سوّغ الأكل!

وفي ذلك يقول رسول الله ﷺ: «قاتَلَ الله اليهود؛ إنَّ الله ـ عزّ وجلّ ـ لما حرّم عليهم الشحوم جملوها، ثمّ باعوها، فأكلوا أثمانها»[2].

---

(١) النساء: ١٦٠ ـ ١٦١.

(٢) أخرجه البخاري: ٤٦٣٣، ومسلم: ١٥٨١.

ويقول أيضاً فيهم ﷺ: «لعن الله اليهود؛ إنّ الله حرّم عليهم الشحوم، فباعوها وأكلوا ثمنها، وإنّ الله إذا حرّم على قومٍ أكل شيءٍ؛ حرّم عليهم ثمنه»[1].

ومن صور التّحايل أن يسمّي القوم الشيء المحرّم باسم المباح أو الجائز، ظانّين بذلك أنهم يُحسنون صُنعاً؛ كتسمية الخمر مشروبات روحية، وفي الحديث: «ليشربنَّ أُناسٌ من أمّتي الخمر يسمُّونها بغير اسمها»[2].

ولم يقِف الأمر عند الخمر فحسب، بل جاوزه إلى تسمية الرقص والغناء المحرّم فنّاً، والكذب والدّجل لباقة وكياسة، والربّا فوائد، والفَسَقَة والفَجَرة كواكب ونجوماً.

المظهرية تقتل العمل:

إنّ من يتأمّل في أمر محبّي المظهرية؛ يرى أنهم من العاجزين الذين لا يقْوون على العمل؛ إنّهم يأوون إلى

---

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» وأبو داود «صحيح سنن أبي داود» (٢٩٧٨) وغيرهما.

(٢) أخرجه أحمد وأبو داود «صحيح سنن أبي داود» (٣١٣٥) وابن ماجه وغيرهم، وانظر «الصحيحة» (٩٠).

الشكليات؛ ليقعدوا عن العمل الصحيح المثمر الطّيب، وإنّك ترى أحدهم يدّعي حبّ الله ـ تعالى ـ ورسوله ﷺ من غير أن ترى منه طاعة صحيحة أوسلوكاً حسناً، وإنّما يتّبع هوى نفسه، ويتمنّى على الله الأماني، وكأنّه واثق من دخول الجنّة بلا حساب أو عذاب؛ كقول اليهود والنصارى ـ كما أخبر القرآن العظيم عنهم ـ: ﴿**لن يدخُل الجنّة إلا من كان هوداً أو نصارى**﴾[1].

ألا ليتهم قرؤوا قول الله ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿**قُلْ إنْ كنتم تُحبّون الله فاتبعوني يُحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم**﴾[2].

وليتهم قرؤوا قوله ـ تعالى ـ: ﴿**فلا وربِّكَ لا يؤمنون حتّى يُحكّموك فيما شجر بينهم ثمّ لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويُسلموا تسليماً**﴾[3].

فقد أقسم الله تعالى قسماً عظيماً: أن لا إيمان للمرء

---

(١) البقرة: ١١١.

(٢) آل عمران: ٣١.

(٣) النساء: ٦٥.

حتى يجعل شريعته ـ سبحانه ـ قوام عيشه، وسلوك أركانه وجنانه، ومنهاج حياته؛ دون حرج أو تبرُّم أو ضيق، مع التسليم والإذعان والخضوع له ـ سبحانه ـ.

وهناك من يدّعي حبَّ القرآن، فيكتفي بتقبيله وتعليقه في صدر المجلس، دون العمل بمقتضاه، من غير أن يأتمر بأمره، أو ينتهي بنهيه.

ولئن نسيت فلن أنسى ما جرى ذات يوم، حين أخذتُ زوجتي إلى أحدى الطبيبات للمعالجة، فأحببت الاستفادة من زمن الانتظار، فسألت الطبيبة عن مُصحف؛ لأقرأ فيه ما تيسَّر من الآيات، فقالت: ليس عندي مصحف، ولكن يا حاج! هذه العيادة ملأى بالآيات والقرآن الكريم ـ تعنى الملصقات والمعلقات ـ!

كِبْرٌ ومجاراة في المجتمع:

لا شكَّ أنَّ الكِبْر ـ أو شيئاً منه ـ هو الذي يحفز الشخص للظهور أمام الناس بمظهر يأبى فيه التواضع، ويحب فيه العّلو والظهور، فكم من الناس قد استحيوا أن يركبوا السيارات المتواضعة، زهيدة الثمن، وكرهوا أن يُشاهَدوا إلا وهم في

سيارات فارهة مرتفعة السعر، حتى إن أحد هؤلاء قال لصاحبه يوماً: «انظر إلى هذا العدد من السيارات ـ وكان عنده قرابة الأربع أو الخمس ـ ولكنّي مدين بآلاف الدنانير، وأضطرُّ أن أفعل هذا لمجاراة المجتمع».

وقال أحد النّاصحين لصاحبه: «هذه السيارة مكلفة، وثمنها مرتفع، فلو اقتنيت دونها؛ لأجزأت وقضت الحاجة».

فقال له: «إنّني بحكم عملي وعلاقاتي الاجتماعية مضطر لاقتناء مثل هذه السيارة، وإن لم أفعل لا أحظى بإلقاء السلام من الأصحاب».

لا تغرَّنَّكم الكثرة يا أصحاب المظاهر الخاوية:

اقرؤوا القرآن العظيم، تجدوه يذّم الكثرة ويمتدح القلة.

أمّا في القلّة؛ فاسمعوا قوله ـ سبحانه ـ:

١ـ ﴿وقليلٌ من عبادي الشكور﴾[١].

٢ـ ﴿وما آمن معه إلا قليل﴾[٢].

---

(١) سبأ: ١٣.

(٢) هود: ٤٠.

٣ـ ﴿ وإنّ كثيراً من الخُلطاء ليبغي بعضهم على بعض إلا الذين آمنوا وعملوا الصّالحات وقليل ما هم ﴾[١].

٤ـ ﴿ ثُلَّةٌ من الأولين. وقليلٌ من الآخرين ﴾[٢].

٥ـ ﴿ فلمّا كُتب عليهم القتال تولّوا إلا قليلاً منهم ﴾[٣].

٦ـ ﴿ ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان إلا قليلاً ﴾[٤].

٧ـ ﴿ قليلاً ما تشكرون ﴾[٥].

وقال ـ سبحانه وتعالى ـ في ذمّ الكثرة:

١ـ ﴿ ويوم حُنين إذ أعْجَبتكم كثرتكم فلم تغنِ عنكم

---

(١) ص: ٢٤.

(٢) الواقعة: ١٣ ـ ١٤.

(٣) البقرة: ٢٤٦.

(٤) النساء: ٨٣.

(٥) السجدة: ٩.

شيئاً ﴾[1].

٢- ﴿ وكثير حقَّ عليه العذاب ﴾[2].

٣- ﴿ ثمّ إنّ كثيراً منهم بعد ذلك في الأرض لمسرفون ﴾[3].

٤- ﴿ وإنَّ كثيراً من الناس لفاسقون ﴾[4].

٥- ﴿ وإنَّ كثيراً ليُضلُّون بأهوائهم بغير علم ﴾[5].

٦- ﴿ وإنَّ كثيراً من الناس عن آياتنا لغافلون ﴾[6].

٧- ﴿ وإنَّ كثيراً من النّاس بلقاء ربّهم لكافرون ﴾[7].

---

(١) التوبة: ٢٥.

(٢) الحج: ١٨.

(٣) المائدة: ٣٢.

(٤) المائدة: ٤٩.

(٥) الأنعام: ١١٩.

(٦) يونس: ٩٢.

(٧) الروم: ٨.

٨- ﴿ ولقد أضلَّ منكم جِبِلاً كثيراً ﴾[١].

٩- ﴿ ولكنَّ أكثر النّاس لا يشكرون ﴾[٢].

١٠- ﴿ وإنْ تُطِعْ أكثر من في الأرض يُضلُّوك عن سبيل الله ﴾[٣].

١١- ﴿ ولكنَّ أكثر الناس لا يعلمون ﴾[٤].

١٢- ﴿ ولكنَّ أكثر النّاس لا يؤمنون ﴾[٥].

١٣- ﴿ بل أكثرهم لا يعقلون ﴾[٦].

١٤- ﴿ فأبى أكثر النّاس إلا كفوراً ﴾[٧].

---

(١) يس: ٦٢.

(٢) البقرة: ٢٤٣.

(٣) الأنعام: ١١٦.

(٤) الأعراف: ١٨٧.

(٥) هود: ١٧.

(٦) العنكبوت: ٦٣.

(٧) الإسراء: ٨٩.

١٥ـ ﴿ولكنَّ أكثرهم يجهلون﴾[١].

وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «عُرضَت عليَّ الأمم، فرأيت النّبيّ ومعه الرهط، والنّبيّ ومعه الرّجل والرّجلان، والنّبيّ وليس معه أحد، إذ رُفع لي سوادٌ عظيم، فظننتُ أنّهم أمّتي، فقيل لي: هذا موسى وقومُه، ولكن انظر إلى الأفق، فإذا سوادٌ عظيم، فقيل لي: انظر إلى الأفق الآخر، فإذا سوادٌ عظيم، فقيل لي: هذه أمّتك، ومعهم سبعون ألفاً يدخلون الجنّة بغير حساب ولا عذاب، هم الذين لا يسترقون[٢]، ولا يتطيّرون، ولا يكتون، وعلى ربّهم يتوكّلون»[٣].

وعن أبي سعيد ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله

---

(١) الأنعام: ١١١.

(٢) ولم أورد كلمة «لا يرقون»؛ لشذوذها سنداً ومتناً.

قال شيخنا ـ رحمه الله تعالى ـ في «صحيح الجامع» تعليقاً على هذا الحديث: «قوله: «لا يرقون» هو مما تفرّد به مسلم دون البخاري وغيره، ثم هو شاذٌ سنداً ومتناً؛ كما بيّنته في محلٍّ آخر، وحسبك دليلاً على شذوذه أنَّ النّبيّ ﷺ قد رقى غيره أكثر من مرة».

(٣) أخرجه البخاري: ٥٧٥٢، ومسلم: ٢٢٠.

ﷺ : « يجيء النّبيّ يوم القيامة ومعه الرجل، والنّبيّ ومعه الرّجلان، والنّبيّ ومعه الثلاثة، وأكثر من ذلك »[1].

وعن عبدالله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ : « إنَّ الإسلام بدأ غريباً وسيعود كما بدأ ... فطوبى للغرباء. قيل: من هم يا رسول الله؟ قال: الذين يَصْلحون إذا فسد الناس »[2].

وهكذا امتدح الله ـ تعالى ـ القلّة، فقليل من يشكر، وقليلٌ من يؤمن، وقليل من لا يبغي، وقليل من لا يتولّى في الحرب، وقليل من لا يتبع الشيطان، والصالحون هم الغرباء.

وذمّ الله ـ تعالى ـ الكثرة، فلم تغنِ عن المسلمين شيئاً حين أعجبتهم يوم حنين، وكثير حقّ عليه عذاب الله

---

(١) أخرجه أحمد وابن ماجه، وصحّحه شيخنا ـ رحمه الله ـ في « الصحيحة » (٢٤٤٨).

(٢) أخرجه أحمد وابن ماجه والترمذي وغيرهم، وانظر « الصحيحة » (١٢٧٣).

وأخرجه مسلم من حديث: أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ برقم (١٤٥) دون قوله: « قيل: من هم يا رسول الله ... ».

ـ سبحانه ـ والمسرفون هم الكُثْر في الأرض، والفسق والغفلة هما الغالبان على الناس، والكثيرون على الكفر والشرك، وأكثر الناس من غير الشاكرين، وأكثر الناس يجهلون ولا يعلمون.

ويجيء النّبيّ يوم القيامة ومعه الرهط، والنّبيّ ومعه الرجل، والنّبيّ ومعه الرجلان، والنّبيّ ومعه الثلاثة، وأكثر من ذلك، فأتباع الأنبياء والرسل قليلون، وأتباع الشيطان والهوى كثيرون.

وعن سفيان الثوري أنّه بعث ليوسف بن أسباط قائلاً: «يا يوسف! إذا بَلغك عن رجل بالمشرق أنه صاحب سنّة؛ فابعث إليه بالسلام، وإذا بلَغك عن آخر بالمغرب أنّه صاحب سنّة، فابعث إليه بالسلام، فقد قلَّ أهل السنة والجماعة»[1].

فتنة المظهريّات عند الدّجّال:

ولا يغيبنَّ عن البال أنَّ الدّجَّال يأتي الناس من طريق المظهريات والشكليّات والماديّات، فيُفتن فيه الناس،

---

(١) أخرجه اللالكائي في «السنة» (رقم ٥٠).

ويتَّبعونه، ويعبدونه من دون الله ـ تعالى ـ.

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «ألا أحدّثُكم حديثاً عن الدّجّال ما حدَّث به نبيٌّ قبلي قومه؟ إنّه أعور، يجيء معه بمثال الجنّة والنار، فالتي يقول: إنها الجنّة هي النار، وإني أنذركم به كما أنذر به نوح قومه»[1].

وفي الحديث: «إنّ الدّجّال يخرج، وإنَّ معه ماء وناراً، فأمّا الذي يراه الناس ماءً؛ فنار تحرق، وأمّا الذي يراه الناس ناراً؛ فماء باردٌ عذْب، فمن أدركه منكم؛ فليَقَعْ في الذي يراه ناراً؛ فإنه عذْب طيّب»[2].

وعن النّواس بن سمعان ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «غيرُ الدّجّال أخوفني عليكم، إن يخرجْ وأنا فيكم فأنا حجيجه دونكم، وإنْ يخرج ولستُ فيكم فامرؤٌ حجيج نفسه، والله خليفتي على كل مسلم؛ إنّه شابٌّ قَطَطٌ[3]،

---

(١) أخرجه البخاري: ٣٣٣٨، ومسلم: ٢٩٣٦.

(٢) أخرجه البخاري: ٣٤٥٠، ومسلم: ٢٩٣٤، ٢٩٣٥.

(٣) أي: شديد جعودة الشعر.

إحدى عينيه كأنها عنبة طافية[1]، كأنّي أشبِّهه بعبد العُزَّى ابن قَطَن، فمن أدركه منكم؛ فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف؛ إنَّه خارجٌ خَلَّةً[2] بين الشام والعراق، فعاث[3] يميناً، وعاث شمالاً، يا عباد الله! فاثبتوا.

قالوا: يا رسول الله! ما لَبْثُهُ؟

قال: أربعون يوماً، يومٌ كسنة، ويومٌ كشهر، ويومٌ كجمعة، وسائر أيامه كأيامكم».

قالوا: يا رسول الله! فذلك اليومُ كسنةٍ أتكفينا فيه صلاةُ يوم؟

قال: لا؛ اقدُرُوا له.

قالوا: وما إسراعه في الأرض؟

قال: كالغيث استدبرته الريح[4]، فيأتي على القوم،

---

(١) أي: ناتئة مرتفعة، ذهب نورها إلا بصيصاً منه.

(٢) أي: طريقاً بينهما.

(٣) العيث: أشد الفساد، والإسراع فيه.

(٤) قال ابن الملك: «الجملة (استدبرته الريح) حال أو صفة =

فيدعوهم، فيؤمنون به ويستجيبون له، فيأمر السماء فتمطر، والأرض فتُنْبت، فتروح عليهم سارحتهم[1] أطول ما كانت درّاً[2]، وأشبعه ضروعاً، وأمدَّه خواصر[3] ثمّ يأتي القوم، فيدعوهم، فيردُّون عليه قوله، فينصرف عنهم، فيصبحون ممْحلين[4] ليس بأيديهم شيءٌ من أموالهم. ويمرُّ بالخَرِبة[5]، فيقول لها: أخرجي كنوزك، فتتبعه كنوزها كيعاسيب النحل[6]. ثمّ يدعو رجلاً ممتلئاً شباباً[7]، فيضربه بالسيف،

= للغيث، و(ال) فيه للعهد الذهني، والمعنى أنَّ هذا مثال لا يدرك كيفيته، ولا يمكن تقدير كميته». «التحفة».

(١) المال السائم، والماشية التي تذهب إلى المرعى.

(٢) أي: لبناً.

(٣) لامتلائها من الشبع.

(٤) المحل: انقطاع المطر، وما ينجم عنه من يبوسة الأرض والكلأ.

(٥) الموضع الخراب.

(٦) أي: جماعته.

(٧) أي: في عنفوان شبابه.

فيقطعه جَزْلتين[1] رَمية الغَرَض[2]، ثمّ يدعوه، فيُقبل ويتهلّل وجهه يضحك. فبينما هو كذلك إذ بعَثَ الله المسيح ابن مريم، فينزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق، بين مَهْرودَتَيْن[3]، واضعاً على أجنحة ملكين، إذا طأطأ رأسه قطر، وإذا رفعه تحدَّر منه جُمانٌ[4] كاللؤلؤ، فلا يحلُّ لكافرٍ يجد ريح نفَسِه إلا مات، ونفسه ينتهي حيث ينتهي طرفه، فيطلبه حتى يدركه بباب لُدٍّ، فيقتله، ثمّ يأتي عيسى قومٌ قد عصمهم الله منه، فيمسح عن وجوههم، ويحدّثُهم بدرجاتهم في الجنّة»[5].

وعن أنس ـ رضي الله عنه ـ عن النّبيّ ﷺ قال: «ليس من بلدٍ إلا سيطؤه الدّجّال؛ إلاّ مكة والمدينة، وليس نقْب من أنْقابها إلا عليه الملائكة صافّين تحرسُها، فينزل بالسَّبخة،

---

(١) أي: قطعتين.

(٢) الغَرَض: الهدف الذي يُرمى إليه، والمراد: مقدار ما بينهما رمية الهدف.

(٣) أي: ثوبين مصبوغين.

(٤) أي: الحبات من الفضة؛ تُصنع على هيئة اللؤلؤ الكبار.

(٥) أخرجه مسلم: ٢٩٣٧.

فترجف المدينة ثلاث رجفات، يخرج إليه منها كلُّ كافرٍ ومنافقٍ»[1].

وعن أنس ـ رضي الله عنه ـ أنّ رسول الله ﷺ قال: «يتبع الدّجّال من يهود أصبهان سبعون ألفاً عليهم الطّيالسة[2]»[3].

وعن المغيرة بن شعبة ـ رضي الله عنه ـ قال رسول الله ﷺ: «ما سأل أحدٌ رسول الله ﷺ عن الدّجّال أكثر ممّا سألته، وإنّه قال لي: «ما يضرُّك؟ قلت: إنّهم يقولون: إنّ معه جبل خبز ونهر ماء! قال: هو أهون على الله من ذلك»[4].

---

(١) أخرجه البخاري: ١٨٨١، ومسلم: ٢٩٤٣ واللفظ له.

(٢) في «لسان العرب»: الطيلس والطيلسان: ضرب من الأكسية، وقيل: تالشان، وهو كل ثوب أخضر».

وفي «الوسيط» ـ بحذف يسير ـ: «الطّالسان: ضرب من الأوشحة يلبس على الكتف، أو يُحيط بالبدن، خالٍ من التفصيل أو الخياطة [تالسان أو تالشان]».

(٣) أخرجه مسلم: ٢٩٤٤.

(٤) أخرجه البخاري: ٧١٢٢، ومسلم: ٢٩٣٩.

وعن هشام بن عامر ـ رضي الله عنه ـ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «ما بين خلْق آدم إلى قيام الساعة أمرٌ أكبر من الدّجّال»[1].

وهكذا يلحظ المتأمِّل عِظَم فتنة الدّجّال، فليس هناك من فتنة أكبر من فتنته؛ بين خلق آدم إلى قيام الساعة.

معه نهر ماء، وجبل خبز، يأتي بمثال الجنّة والنار.

إسراعه في الأرض كالغيث استدبرته الريح.

يقول للسماء: أمطري؛ فتمطر، وللأرض: أنبتي، فتنبت، ذلك لمن آمن به، وأما من ردَّ عليه قوله وكفر به؛ فإنها الفتنة بالجدْب والمحْل وانعدام المال.

من الأرض الخراب يُخرج الكنوز بقوله: أخرجي كنوزك.

يطأ البلاد كلّها إلا مكّة والمدينة، تتبعه آلالاف المؤلفة.

مظهريات كثيرة هائلة مرعبة مدهشة، انخدع بها كثير من الناس، فآمنوا به، واتَّبعوه، وعبدوه من دون الله ـ تعالى ـ.

---

(١) أخرجه مسلم: ٢٩٤٦.

مظهـريات كـثـرة الأتْبـاع، مظهـرية الطعـام والشـراب، مظهرية السرعة، مظهريات خارقة للعادة!

بيْد أنَ العاقل اللبيب لا يغيب عن باله، ولا يذهب عن ذهنه قول رسول الله ﷺ: «.. فإنْ ألبسَ عليكم فاعلموا أنَّ ربّكم ليس بأعور، وأنّكم لن تروا ربّكم حتى تموتوا»[1].

كما لا يغيب عن فؤاده أيضاً قوله ﷺ: «ما من نبيٍّ إلا وقد أنذر أمّته الأعور الكذّاب، ألا إنّه أعور، وإنّ ربّكم ليس بأعور، ومكتوبٌ بين عينيه (ك ف ر)[2].

وفي روايةٍ لمسلم: «مكتوب بين عينيه: كافر، يقرؤه كل مؤمن، كاتب وغير كاتب»[3].

أوليست هذه كافية لدحْضِ كل مظهريَّات الدّجّال وفتنته؟

أولى به قبل أن يقوم باستعراضاته وإبراز قُدراته المزعومة؛

---

(١) جزء من حديث أخرجه أحمد وأبو داود «صحيح سنن أبي داود» (٣٦٣٠)، وقال شيخنا ـ رحمه الله ـ في «المشكاة» (٥٤٨٥) إسناده جيد.

(٢) أخرجه البخاري: ٧١٣١، ومسلم: ٢٩٣٣.

(٣) أخرجه مسلم: ٢٩٣٤.

أن يُزيل كلمة الكفر من بين عينيه، وأن يُذهِبَ العور الذي أحلَّه الله ـ سبحانه ـ به.

أيريدُ العاقل اللبيب أكثر من هذا؛ ليكفر بالدّجّال ويثبت على إيمانه بالله ـ تعالى ـ؟

ولنا وقفة مع رجل من المؤمنين، مع نموذج من النماذج الفاضلة، التي ينبغي أن نضعها في أفئدتنا، وبين ناظرينا، ذلك الرجل الذي قال عنه رسول الله ﷺ: «هذا أعظم الناس شهادةً عند ربِّ العالمين ...».

فكيف نال هذه المنزلة؟! وبمَ استحق بفضل الله هذه الشهادة؟!

يجيبنا عن هذا أبو سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ فيما يرويه عن رسو ل الله ﷺ إذ يقول: «يخرج الدّجّال فيتوجّه قِبَله[1] رجلٌ من المؤمنين، فتلْقاه المسالح[2] ـ مسالح الدّجال ـ فيقولون له: أين تعمِد[3]؟ فيقول: أعمد إلى هذا الذي

---

(١) أي: جهته.

(٢) الخفراء والطلائع.

(٣) تذهب وتقصد.

خرج. قال: فيقولون له: أومَا تؤمن بربّنا؟ فيقول: ما بربِّنا خفاء! فيقولون: اقتلوه. فيقول بعضهم لبعض: أليس قد نهاكم ربُّكم أن تقتلوا أحداً دونه؟

فينطلقون به إلى الدّجّال، فإذا رآه المؤمن؛ قال: يا أيها الناس! هذا الدّجّال الذي ذكر رسول الله ﷺ، فيأمر الدّجّال به، فيُشَبَّحُ[1]، فيقول: خذوه وشجُّوه. فيوسَعُ ظهره وبطنه ضرباً، فقول: أوما تؤمن بي؟ فيقول: أنت المسيح الكذّاب. فيؤمر به، فيؤشر[2] بالمنشار من مفرقه[3] حتى يُفرّق بين رجليه، ثمّ يمشي الدّجال بين القطعتين. ثمّ يقول له: قم. فيستوي قائماً، ثمّ يقول له: أتؤمن بي؟ فيقول: ما ازددتُ فيك إلا بصيرة. ثمّ يقول: يا أيها الناس! إنّه لا يفعل بعدي بأحد من الناس، فيأخذه الدّجّال ليذبحه، فيُجعل ما بين رقبته إلى تَرقُوته[4] نحاساً، فلا يستطيع إليه سبيلاً، فيأخذ

---

(١) أي: يُمدّ على بطنه.

(٢) أي: ينشر.

(٣) أي: وسط رأسه، وهو الموضع الذي يُفرق فيه الشعر.

(٤) هي العظم الذي بين ثغرة النحر والعاتق.

بيديه ورجليه، فيقذف به، فيحسب الناس أنّما قذفه إلى النار، وإنما أُلقي في الجنّة.

فقال رسول الله ﷺ: هذا أعظم الناس شهادة عند ربِّ العالمين»[1].

سأله جند الدّجّال: أوما تؤمن بربنا؟ فما جوابه؟

...ما بربّنا خفاء!

فكيف خفي إذا على كثير من الناس؟!

إنّه تفقّه في كتاب الله ـ سبحانه ـ وسنّة رسول الله ﷺ، فإيمانه أكثر رسوخاً من الجبال الراسيات، وهو أكبر من أن تزحزحه شبهات الدّجّال.

إنَّ هذا الرجل المؤمن حين رأى الدّجّال حَذّر منه بقوله: «يا أيها الناس! هذا الدّجّال الذي ذكر رسول الله ﷺ» ... إنّه يتذكر أحاديث رسول الله ﷺ المتعلّقة بالدّجّال، يتذكّر تحذيره ـ عليه الصلاة والسلام ـ فينزله منزله، ويضعه موضعه.

وماذا بعد أن يوسع ظهره وبطنه ضرباً؟

---

(١) أخرجه مسلم: ٢٩٣٨.

ثمّ ماذا بعد أن سأله الدّجّال أتؤمن بي؟

الجواب بديع، جواب مؤمنٍ بالله ـ تعالى ـ جواب من اعتصم قلبه بالله ـ سبحانه ـ جواب من اعتصم بسنة النّبيّ ﷺ ... «أنت المسيح الكذاب».

فيلتهبُ قلب الدّجّال غيظاً ويشتعل صدره غضباً، فيأمر بالمنشار ليؤشر من مفرق رأسه حتى يفرّق بين رجليه، ثمّ يمشي عدوُّ الله ـ تعالى ـ بين القطعتين، ثمّ يقول له: قم.

وهنا تتجلّى الفتنة، ويا لها من فتنة! يستوي المؤمن قائماً، فيسأله الدّجّال: أتؤمن بي؟ فيكون جوابه: ما ازددت فيك إلا بصيرة، ما ازددت فيك إلا كُفراً، ما ازددتُ بالله إلا إيماناً وتوحيداً.

إنّه الإيمان بالله ـ تعالى ـ على بصيرة، وأنْعِمْ به من إيمان!

ولم ازدادت بصيرتُه وعظُم إيمانه؟ لأنّ هذا الذي يجري، قد تقدّم معه في حديث رسول الله ﷺ، وليس هذا فحسب؛ فإنّه يعلم أنّ الدّجّال لن يُسلّط على أحدٍ بعده أيضاً، فيبلّغ هذه الأمانة قبل فراقه الحياة بقوله: «يا أيها الناس! إنه لا يفعل بعدي بأحد من الناس».

وهكذا حطّم ذلك المؤمن الصادق جبال المظهريات وأودية الشكليات بتمسُّكه بكتاب الله ـ سبحانه وتعالى ـ وسنّة رسول الله ﷺ.

كم يفُتنُ بالدّجّال من أحد! وكم يرتدُّ من أناس! وكم يكفر ويضلُّ من الخلق بالكثرة والخوارق والمظاهر! لأنهم لم يجعلوا النصوص في القلوب؛ للتمييز بين الحق والباطل، بل اتّخذوا الشكليات والمظاهر سبيلاً لهم وطريقاً، فضلُّوا وتاهوا وضاعوا، ألا بئس السبيل الذي نهجوه، والطريق الذي اختاروه.

أمراض يُعانيها محبُّو المظهريّات والشكليّات:

١ـ الرياء.

٢ـ الكِبْر من أن يُروا على حال متواضعة.

٣ـ غمط الناس واحتقارهم.

٤ـ حبُّ العلوِّ.

٥ـ ضعف الشخصيّة والثّقة بالنفس.

٦ـ الخوف من الناس، وقلّة الخشية من الله ـ تعالى ـ.

٧ـ العلم بالدّنيا والجهل بالدّين.

٨ـ القعود عن العمل والنفور منه.

نداء إلى الحكام والمحكومين في العالم الإسلامي:

اتّقوا الله في المظاهر التي تكلّف آلاف آلاف الدراهم؛ في مظاهر لا تجدي ولا تنفع.

اتّقوا الله في أموال المسلمين، يوم تقفون بين يدي الواحد القهار، يوم لا درهم ولا دينار.

اتّقوا الله في الفقراء والمساكين.

اتّقوا الله في الأرامل والثكالى.

اتّقوا الله في المكروبين والملهوفين.

اتقوا الله واعلموا أنّكم تحيون بدون هذه الشكليات والمظاهر.

هناك أفواه تنتظر لقيمات المتصدّقين.

هناك دموع ترتقب شفقة المتعطّفين.

إنّ المظاهر والشكليات تدمّر اقتصاد الأمّة الإسلامية

فاحذروها.

جمّعوا ما تضيّعونه للشكليات سلاحاً للأمّة، فأمّتنا مستهدفة.

اذكروا قوله ﷺ: «إنَّ الشيطان يحضُرُ أحدكم عند كل شيء من شأنه، حتى يحضره عند طعامه، فإذا سقطت من أحدكم اللقمة؛ فليُمط ما كان بها من أذى، ثمّ ليأكلها، ولا يدَعْها للشيطان، فإذا فرغ؛ فليلْعَق أصابعه؛ فإنّه لا يدري في أيّ طعامه تكون البركة»[1].

«... إذا سقطت من أحدكم اللقمة؛ فليُمطْ ما كان بها من أذى، ثمّ ليأكلها، ولا يدعها للشيطان». فكيف بمن يُسقِطُ ويُلقي أكوام الطعام في المزبلة؟!

كيف بمن يُطعم الشياطين ما لذَّ وطاب من المأكولات؟!

احذروا الإسراف في مناسباتكم وحفلاتكم وأعيادكم، في استقبالكم ووداعكم، في أثاثكم ولباسكم.

احذروا إضاعة المال في أيّ شيء ترونه يُدخل البهجة في نفوسكم، ما كان في معصية الله ـ تعالى ـ مخافة أن تدخل

(١) أخرجه مسلم: ٢٠٣٣.

الحسرة في قلوبكم يوم القيامة.

انظروا أين تنفقون الأموال؛ فرسول الله ﷺ يقول: «لا تزول قدما ابن آدم يوم القيامة من عند ربّه حتى يُسأل عن خمس: عن عمره فيما أفناه؟ وعن شبابه فيما أبلاه؟ وعن ماله من أين اكتسبه؟ وفيما أنفقه؟ وماذا عمل فيما عَلِم؟»[1].

أيتها المظهرية

أيتها المظهرية!

حسْبُك حسْبُك!

فقد غزوتِ المذياع والرائي[2].

غزوت الشارع والسوق والبيت.

غزوت المساجد والمصاحف ...

وقبل كل هذا؛ غزوت الأفئدة والقلوب.

---

(١) أخرجه الترمذي «صحيح سنن الترمذي» (١٩٦٩) وأبو يعلى في «مسنده» والطبراني في «الكبير» و«الصغير»، وانظر «الصحيحة» (٩٤٦).

(٢) أي: التلفاز.

رأيتك في المدارس، في دفاتر التحضير، في موازين التقويم، في الوسائل التعليمية.

رأيتك في الاستقبال والوداع.

رأيتك في المعاهد والجامعات والمكاتب والدوائر والقرارات والقوانين.

رأيتك تقطّعين الأرحام، وتُوقعين بين الأقارب والأحباب.

رأيتك تُهلكين الفقير؛ في استقبال الضُّيوف، وفي صنع الطعام.

رأيتك في الأفراح؛ تمصِّين مال الأغنياء، وتحلبين مال الفقراء، وتذلّينهم بالدّيون.

رأيتك في المآتم؛ لا ترحمين غنياً أو فقيراً، تستمتعين بالإسراف، وصرف المال بغير الحق.

رأيتك في الحفلات تمتطين النِّفاق، وتركبين الكذب، وترتدين الأثواب الزاهية، وتحرِّكين الأيادي للتصفيق.

رأيتك في تقديم المحاضرين؛ تمتدحين أبرز أعمالهم؛

لتقطّعي ظهورهم، وتذبحي إخلاصهم، وتحبطي أعمالهم.

رأيتك تُمتطين لكل باطل.

رأيت أنصارك من المنافقين والكسالى والمرجفين والجاهلين، ورأيت أعداءك من المؤمنين العاملين المخلصين العالمين.

رأيتهم يسخِّرونك لكل باطل وفاسد.

رأيتك حيث لا ينبغي أن تكوني.

أيتها المظهرية!

كم ذُرِفتْ من جرَّائك الدموع وأفلست الجيوب!

كم نافقتْ لأجلك النفوس وكذبت الألسنة!

كم عُبِدْتِ من دون الله ـ تعالى ـ!

كم قُدْتِ من خلق الله ـ تعالى ـ إلى النار!

كم دمرتِ ودمّرت في المجتمع!

كم هتكتِ من سترٍ، وضيّعْتِ من عباد!

كم مَنعتِ من هدايا، وحرمتِ من صلات!

كم وكم عطّلت من نكاح وزواج!

كم سددت من سُبُل الخير، وكم فتحت من سُبُل الشر!

وقانا الله منك، يا مهجة الشيطان الرجيم!

تمّ بحمد الله ـ تعالى ـ

انتهيت ـ بفضل الله ـ تعالى ـ من النظر فيه وتنقيحه لإعادة طبعه؛ يوم الخميس في عمّان ٢٦ من شهر صفر عام (١٤٢٣) هـ.

وكتب:

حسين بن عودة العوايشة

فهرس

الفهرس

المقدّمة ٥

المظهرية الجوفاء ١١

حديث: «إذا زخرفتم مساجدكم» ١١

لمن الخطاب؟ ١١

حال المسلمين اليوم ١٢

كيف كان المسلمون بالأمس؟ ١٣

كيف كان مسجد النّبيّ ﷺ؟ ١٦

ما الذي خرّجه مسجد النّبيّ ﷺ ٢٠

كيف كان القرآن في عهد النّبيّ ﷺ وأصحابه
- رضي الله عنهم - ٢٢

موقف عمر - رضي الله عنه - من المظهرية ٢٣

الشخصية الإسلامية تؤثر ولا تتأثر ٣٠

الفهم الصحيح للعزة ٣١
موازين العزة عند غير المسلمين ٣٢
عوداً إلى قول عمر ـ رضي الله عنه ـ ٣٤
المظهرية الجوفاء لا تخدم مصلحة الأمة ٣٦
لا بُدَّ من الثقة بالنفس ٤٠
المراوحة في التنعُّم ٤١
وصية رسول الله ﷺ بالمساكين ٤٣
الضعفاء والفقراء هم أهل الجنة ٤٥
هذا خير من ملء الأرض من مثل هذا ٤٧
نصر الأمة مرتبط بالضعفاء ٥٠
ترى الرجل النحيف فتزدريه ٥٢
رضى الله ـ تعالى ـ لرضى المتقين وغضبه لغضبهم .. ٥٤
تأملات في قوله ـ تعالى ـ: ﴿**عبس وتولى ..**﴾ ... ٥٦
أغنياء لم تخدعهم المظهرية ٥٨
رفض المظاهر الإسلامية وتقديس المظاهر الخاوية ... ٦٠

خلاصة وإيضاح في المظهرية ٦٢
الجمود على ظاهرية القانون وتأويل الآيات والأحاديث ٦٢
ضعف الحياء من الله ـ تعالى ـ يؤدي إلى طلب الزينة ... ٦٣
نظرات في مظهرية قارون ٦٤
نماذج من المظهريات ٦٩
المظهرية في الأفراح ٦٩
المظهرية في المآتم ٧١
المظهرية في الزّيارات والدّعوات ٧٤
المظهرية في الدوائر والمؤسسات والشركات ٧٧
المظهرية في التجارة ٧٧
المظهرية في المدارس ٧٩
نصيحة للموجهين ٨٢
المظهرية في حبّ النّبيّ ﷺ ٨٥
المظهرية في الفتاوى ٨٧

علاقة المظهرية بالتحايل ٩٢
المظهرية تقتل العمل ٩٤
كِبرٌ ومجاراة للمجتمع ٩٦
لا تغرّنّكُم الكثرة يا أصحاب المظاهر الخاوية ٩٧
فتنة المظهريات عند الدّجّال ١٠٣
أمراض يُعانيها محبّو المظهريات والشكليات ١١٥
نداء إلى الحكام والمحكومين في العام الإسلامي ١١٦
أيتها المظهرية ١١٨
الفهرس ١٢٢